

و. أحمد رضا الزوفيق

روايات مصرية الجيب

36

هواء فاسد

سافاري

Looloo

www.dvd4arab.com



مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد - كما يقول الغلاف - كى يبقى حياً ويبقى طبيباً ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراي) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظ (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بظلم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جداً ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد فى وطنه فانتقل يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنات جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شينين : أن تظل حياً وتظل طبيباً .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كنوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرأتى ..

تعالوا نبداً وسنفهم كل شىء ..

1- أنا ..

سوف يكون عليك أن تتحمل ما أعترف به ، وأن تقبل هذه الحقيقة الغربية بعض الشيء ..

لا أذكر ظروف مولدى بالضبط .. لكنى بالتأكيد لم أتل أية رعاية من أب وأم ، فالطريقة التى نولد بها تجعل الأمر صعباً . فى فيلم (أنتز Antz) تقول النملة المصابة بالعصاب - ويؤدى صوتها (وودى ألين) - للطبيب النفسى :

- « عندما تكون الابن الأوسط فى أسرة تتكون من مليون نملة ، فأنت لا تشعر بأن أبويك يهتمان بك كثيراً ! »

هذا ينطبق على حالتى بشدة .. فى الواقع لو فكرت فى الطريقة التى نأتى بها إلى العالم لفهمت ..

فقط أذكر تلك الرحلة بالطائرة .. أذكر كيف كنت أحتشد مع آلاف من إخوتى فى تلك الماسورة الضيقة ، مع الكثير من السباب والشجار :

- « ألن تكف عن دفعى ؟ »

- « ليس قبل أن تكف عن جذبى .. »

قائدنا يصيح :

- « يا رجال العمليات الخاصة تماسكوا ! تذكروا أن هذا هو غرض التدريب الذى خضعتم له كل هذه الفترة ! إنها ساعة الحقيقة ! »

كان الانتظار مملاً والطقس حاراً .. لكنه الليل وهو الوقت المناسب جداً للرحلات من هذا الطراز ..

فى النهاية سمحوا لنا بالخروج .. ذلك الفراغ المريح الذى يلي عنق الزجاجاة ..

شعرت بأننا نعبر ذلك الحاجز الدافئ ، ثم رحنا نسبح فى ذلك السائل الجميل الرائق .. من حين لآخر يصطدم بنا واحد من تلك الأجسام العملاقة فتؤلمنا الصدمة . وفى النهاية نجحنا فى اختراق واحد منها ..

أنا وإخوتى داخل ذلك الجسم الدافئ .. إنه مريح .. يشبه عوامة مرنة خفيفة الوزن تنقلنا حيث نشاء ، دعك من أن تهويته ممتازة ..

هكذا وقد شعرنا بالراحة بدأنا ننقسم .. أمامنا ثماني ساعات قبل أن نغادر هذا المكان ..

يجب أن أقدم لك نفسي وعليك أن تصدقني ..
 أنا طفيل الملاريا .. بعبارة أدق أنا صورته المعدية التي تسمى
 (السبوروزويت) .. طبعاً استنتج الأذكيا منكم أن الطائرة التي
 كانت تقلني مع إخوتي ليلاً هي البعوضة .. واستنتجوا أن الجسم
 الدافئ الذي انتقلنا إليه هو جسد بشري لدغته هذه .. داخل هذا
 الجسد البشري سبحنا وسط الدم ، واتخذنا مسكننا المؤقت في
 إحدى الكريات الحمر السابحة فيه ..

أسمع البعض يردد : ما هذا ؟ والبعض يقول : هل يكتب طفيل
 الملاريا مذكراته ؟

لِمَ لا ؟ إنني لست كائنًا بسيطًا أبله .. أنا أكثر ذكاء من الأميبا
 الغبية التي تقضى وقتها وسط القاذورات في القولون ، ولست
 خمولاً أبقي بلا حراك سنوات عدة مثل البلهارسيا .. أنا أهم
 مرض معد في العالم ..

أنا أجلب السقم لنحو ثلاثمائة مليون شخص كل عام ، وأقتل حوالي
 مليوني شخص كل عام .. أي أنني أفتك بآسان كل نصف دقيقة !

لاحظ أن هذه الأرقام تقريبية ؛ لأن هناك حالات تموت وتمرض
 في الأعراش حيث لا يمكن أن يحصيها أحد ..

والأجمل من كل هذا هو أنني أسترد قواي بسرعة غير عادية ،
 وأتعلم كيف أقاوم مناعة الجسد البشري ، وكيف أواجه ترسانة
 الأسلحة التي يستعملونها ضدنا .. باختصار .. لم تعد الملاريا ذلك
 المرض التافه الذي يتم القضاء عليه ببضعة أقراص ..

إنني مشكلة دائمة .. مشكلة في منظمة الصحة العالمية ، وفي
 كل مؤتمر لطب المناطق الحارة ، وفي كل كلية طب .. مشكلة
 تواجه كل مسافر لقلب أفريقيا أو جنوب شرق آسيا ..

بعد كل هذا تندهش لأنني أكتب مذكراتي بنفسى ؟

إنني لأرى حولى من هم شديدي التفاهة ولا شأن لهم على
 الإطلاق ، لكنهم جميعاً يكتبون مذكراتهم التي لا تعدو كلمات مثل :
 « الاثنين 18 نوفمبر .. تناولت الإفطار ثم تناولت الغداء ثم نمت .. لقد
 بدأت أشفى من الإمساك وبخلت الحمام ثلاث مرات .. (عصام) يحبني
 وأنا لا أحبه ، بينما أحب (عمرو) وهو لا يحبني .. ساعننى يا رب ! »

كأن هذا الذى يكتبون تراث ثمين يجب أن يخلد .. وكأن الشعوب
 يجب أن تحتفل بدخولهم الحمام ثلاث مرات ..

ما أكتبه أنا هو ببساطة تاريخ الوجود .. عبقرية الخلق التي
 تمثلت في كائن دقيق واهن لكنه قادر على أن يقهر الجيوش ..

قادر على أن يغير التاريخ .. قادر على أن يجعل العلماء يسهرون في صيف الهند الحار يحرقون في عدسة المجهر حتى يصيبهم الحول ، كما سنعرف حالاً عن (روس) و (ماتسون) و (جراسى) وسواهم .. ليس هذا فحسب .. لقد استخدمنى العلماء فى العلاج فى فترة من التاريخ ! لاحظوا أن مرضى زهرى الجهاز العصبى ترتفع حرارتهم ويتحسنون عندما يصابون بى .. هكذا كان العلاج بالمalaria معروفًا تاريخياً .. نفس الشيء حدث مع الجنون .. إن المجنون يصير عاقلاً عندما يصاب بالمalaria !

بعد هذا كله تتساءل : كيف أكتب مذكراتى ؟ إن لم يكن أنا فمن ؟ وإن لم يكن الآن فمتى ؟

الآن صار علينا أن نقوم بخطوة أخرى من الخطوات التى نعرف غريزياً أن علينا القيام بها ..

نخترق خلايا الكبد البشرى ..

هذا الكبد سليم ولا يعانى صاحبه أى شىء ... كبد نضر مفر بالافتحام والالتهام .. هكذا نفتحمه ، وهناك داخل تلك الخلايا نبداً طوراً آخر من حياتنا ..

إنه الانقسام بلا زواج .. لا ذكر ولا أنثى ولا شراء أثاث وإعدادات لحفل الزفاف .. فقط ننقسم ليصير الواحد منا عشرات .. ربما مئات ..

الآن هو ذا (الميروزيت) يعلن عن نفسه ..

لقد غيرت اسمى لو كنتم قد لاحظتم هذا ..

لكن رحلتى لم تبدأ بعد ..

ما زال الكثير من المرح ينتظرنى ..

1- هو..

عندما جاءت العاشرة مساءً ، فرغ د . (علاء) من كتابة رسالتيه إلى أهله في مصر وإلى زوجته في (الكامبيرون) .. بالنسبة للأخيرة قد وجد أن البريد الإلكتروني أكثر سهولة ، لكنه يفضل أن يرسل الخطابات العادية لأهله لأن أخاه لن يتعلم الكمبيوتر أبدًا .. لسبب ما يصر على أن البريد الإلكتروني لا يفتح .. يصر على أن الخطاب لم يصل .. يصر على أن الخطاب وصله لكنه خال من الكتابة .. كأن الكمبيوتر الخاص به يختلف عن أي كمبيوتر في العالم ، دعك من أنه من أولئك القوم الذين يصنعون لأنفسهم بريدًا إلكترونيًا كل أسبوع ثم ينسون كيفية فتحه وينسون كلمة السر الخاصة به .. هكذا بعد أسبوع يتخذ لنفسه عنوانًا جديدًا ..

في النهاية قرر (علاء) أن لله عبادًا اختصهم بالقدرة على التعامل مع البريد الإلكتروني ، ولم يكن أخوه من بينهم بالتأكيد ..

هكذا عادت الخطابات القديمة المحببة بين الطرفين .. الخطابات ذات الرائحة والتي تحمل طوابع مصر ، وخط أخيه المحبب على الغلاف ..

كان يحب تلقي الخطابات باعتبارها أعظم نشوة في التاريخ ، لكنه كان يمقت كتابة الخطابات باعتبارها أسوأ تعذيب عرفته البشرية منذ عقاب القاربين البابلبي الشهير ..

لقد فرغ الليلة من كتابة الخطاب فشعر بنشوة كأنه تخلص من عبء ثقيل ، أو نزع عن قدميه حذاء ضيقًا ... دعك من أن دورة الخطاب لن تستغرق أقل من ثلاثة أسابيع ، وهذا يمنحه إجازة لا بأس بها حتى الخطاب القادم ..

كان أقرب إلى الاكتئاب والضيق .. الشعور الذي لم يفارقه منذ جاء إلى جنوب أفريقيا ، برغم أن البلاد جميلة بحق .. ربما هو ذلك الشعور بأنه وحيد .. وحيد جدًا .. ربما هو ذلك الشعور الممض بأن الدقائق تتحرك كأنها دبابات نازية فرغ وقودها .. من المؤلم أن تراقب شينين وهما يحدثان : التنفس ومرور الزمن ..

دعك من ذلك الألم العميق في معدته ... يبدو أنها قرحة قد قررت أن تعلن عن نفسها .. هذا يجعل الحياة أجمل .. وهكذا بدأ يتناول بعض أدوية الحمض التي تختلف أسماؤها لكنها جميعًا لها مذاق النعناع ، وتترك ذلك (الطباشور) الأبيض على شفطيك

وشاربك .. وقد اعتاد شرب هذه الأدوية إلى درجة أنه صار يحمل الزجاجاة في جيبه كسكير مدمن ، ويمكن أن يقاطع الحديث في أية لحظة ليجرع جرعة ثم يمسح فمه بكفه كما يفعل الفاشل في الحب في الأفلام العربية ..

في الحادية عشرة مساء سمع دقات على الباب ففتحه ..

كان القادم هو الطبيب الأسكتلندي (سميث ماكفادين) الذى يعتبر رئيسا مباشرا لـ (علاء) ، لكنه كذلك صديق حميم له .. كما عرفنا هو طيب القلب ساذج كطفل .. وفي هذا العالم يحتاج المرء إلى شخص واحد ساذج .. شخص واحد فقط ..

- « هل نمت ؟ »

- « لا .. أظن هذا واضحا .. »

- « تبدو لى كأنك كنت تتسلى بالتهام (الطبشور) .. »

- « أدوية الحموضة .. لا بد من بعضها وإلا لما نمت .. »

جلس على الفراش وراح يجوب بعينه فى الحجرة ..

- « هل أضايقك ؟ »

- « لا .. أنت تعرف أن هذا صعب .. »

احمر وجه الطبيب الأسكتلندي كثيرا .. يجب هنا أن نعرف بأن لهجته كانت صعبة جدا على (علاء) وكان يجيب عن أكثر أسئلته بالضحك أو هز الرأس ، لأنه يخجل من استعادة كل كلمة يقولها الرجل .. هذا يجعلك تشعر بالخجل من غيبائك ...

منذ فترة يحاول (ماكفادين) معرفة ما حدث لـ (علاء) عندما زار (الخوى خوى) .. لماذا لم يعد ذلك الطبيب البارع (فيليب) إلى الوحدة قط ، ولماذا التزمت (مادلين) الصمت .. لماذا انفرد المدير بها و (علاء) فى مكتبه لمدة ساعتين ، ثم خرج الاثنان ووجهاهما يحملان أمارات كارثة انتهت لكنهما يرفضان الكلام عن الأمر نهائيا ؟

فضول قاتل تحول مع الوقت إلى غيظ قاتل .. (علاء)

ما السر الخطير الذى يمكن أن يعرفه (علاء) ويعتبر باقى أفراد الوحدة أقل نضجاً من معرفته ؟ هذا نوع من الوصاية الأبوية الغربية ..

لكن (علاء) ظل صامتاً وفشلت كل محاولات استنطاقه ..
الطبيبة كذلك قالت فى غموض :

- « كان هناك دين ودفعته .. »

ولماذا يبدو كأنهما تلقيا علقة ساخنة ؟ لا يوجد ملليمتر واحد فى الوجهين من دون كدمة ..

لكنه هذه الليلة بالذات لم يأت لهذا الغرض .. قال لـ (علاء) :

- « لا أشعر بأننى على ما يرام .. »

ابتسم (علاء) ، وقال :

- « من منا ليس كذلك ؟ »

- « هل تشعر برغبة فى القىء ودوار .. وتشعر بأنك محموم ؟ »

وضع (علاء) ظهر يده على جبين (ماكفادين) ، وقال :

- « لا .. ليس إلى هذا الحد .. لكن من الوارد أنك مقبل على نزلة برد .. إننا مرهقون بحق .. »

فى اللحظة التالية انتفض (ماكفادين) .. تكور على نفسه وعقد ذراعيه على صدره ، وراح يرتجف فى عنف .. أسنانه تصطك ولحم خديه يترجرج .. وعويناته تتواثب على أرنبه أنفه إلى أن قررت أن تنزلق ..

قال من بين أسنانه :

- « هل .. هل .. هل .. ترى ؟ لست .. لست .. على ما يـ ... »

ما يرام ! »

ثم مد يده المرتجفة إلى البطانية فوضعها على كتفه ، وقال :

- « هل .. هل .. هل .. الط .. الطقس .. با .. با .. »

بارد ؟ »

ليس الليل فى هذه البلاد هو أدفأ شىء فى العالم .. إنه بارد يتسرب للعظام ، لكن ليس إلى درجة الرجفة ، وقد ثبت (علاء) البطانية بإحكام على كتفى الطبيب ، وقال :

- « ليس لدرجة الرجفة .. أنت مريض فعلاً .. »

- « مر .. مريض .. »

وواصل الرجفة ..

2- أنا ..

الآن صار بوسعنا أن نغادر الكبد لنهاجم المزيد من كريات الدم
الْحُمْر .. لقد قضينا نحو ثلاثة أسابيع داخل الكبد قبل أن نبدأ
عملية الهجوم ..

هناك من ظل نائمًا داخل خلايا الكبد .. وهذا النائم المسالم قد
قام بضبط (المنبه) بجوار الفراش ليوقظه في وقت ما .. بالطبع
لم نتفق على وقت الاستيقاظ هذا .. بعضنا يستيقظ فورًا وبعضنا
يستيقظ بعد فترة طويلة جدًا (*) ..

هذا هو التفسير لما حير العلماء من قبل .. إنهم يعالجون
المريض بكفاءة، ويعتقدون أن القصة انتهت .. ثم يفاجئون
بعودة الأعراض بالكامل بعد فترة طويلة جدًا ... السبب يا سادة
هو تلك الخلايا النائمة منا والتي تنتظر لحظة الإيقاظ، كأن
المريض لم يشف .. وهكذا تبدأ القصة ثانية ..

(*) للدقة العلمية، لا يمارس (الفالسيبارم) بطل قصتنا هذه العادة لكن

لا داعي لزيادة تعقيد الأمر بهذه التفاصيل !

أسبح فى البلازما الرائقة .. أشعر بالخلايا المناعية تتحسنى ..
إنها تحاول معرفة كيف أبدو .. وعلى الفور تبدأ تصميم جسم
مضاد الغرض منه تدميرى ... هذا الجسم المضاد ينطبق على
كأنه قالب بالجيبس لى ..

الجسم المضاد الذى يشبه حرف Y يسبح فى البلازما من
حولى كأنه سمكة قرش تبغى الفتك بى ..

هنا أمارس تلك المعجزة التى تنفرد بها طفيليات معدودة جداً ..
أخذ قطعاً من بروتينات الدم وأعطى بها نفسى ، كأننى أخفى فى ثياب
صنعها من عدة خرق .. هذا هو (التكر المناعى) .. وهكذا يتشمنى
ذلك الجسم المضاد الأبله ثم يقرر أننى لست الرجل المطلوب .. هكذا
يهز كتفيه ويبتعد بحثاً عن فريسته وأنفجر أنا ضحكاً ..

سوف تتكرر هذه القصة عدة مرات .. كلما عرفت الخلايا
كيف أبدو من الخارج أغير شكلى .. وهكذا أتفادى أجهزة الدفاع
المعددة التى تحمى الجسم البشرى ..

لقد وجدت طريقى إلى كرة دم حمراء نضرة ..

اخترقتها واستقررت بالداخل حيث الراحة والتهوية الممتازة ..

إنها المتعة الحقيقية . يجب أن تكون طفيل ملاريا لتتعم بهذه
اللحظات .. أتغذى على محتويات الكرة وأنمو .. وأنقسم ..

بالطبع لا توجد دورات مياه هنا ؛ لذا اسمحوا لى أن أتخلص
من بقايا ما أكله فى داخل الكرة ذاتها .. هذه طريقة حياة بعيدة
عن اللياقة لكنى لا أملك سواها ، دعك من أن هذا سيجعل العثور
على سهلاً .. سوف ينظر علماءكم تحت المجهر ليروا الكرية
الحمراء وفيها تلك الصبغة المميزة التى تدلهم على أن طفيل
الملاريا موجود ...

إن فترة الراحة تختلف من نوع لآخر .. أحياناً نستريح يومين
وأحياناً ثلاثة أيام .. هذا مهم جداً لأنه السبب فى الحمى المتقطعة
التي لاحظها الأقدمون ..

الآن حان وقت الخروج ..

يقول لى (الميروزويت) الواقف بجوارى :

- « إن هذا ممتع يا زميل . »

فأهز رأسى وأبتلع ريقى ..

يقول :

- « هذه أول مرة لك ؟ »

ماذا يريد هذا المخبول؟ بالطبع هي أول مرة لى وله .. لم نكن نحمل هذا الاسم من قبل ..

على أننى أفترض أن سبب هذه الأسئلة السخيفة هو ما يشعر به من إثارة توشك على جعل أنفاسه تتوقف ..

إننا الآن موشكون على التحرر والسباحة فى البلازما من جديد .. موشكون على الخروج ..

وهو خروج غير مسالم مثل دخولنا .. لقد صرنا كثيرين .. صرنا أقوياء .. هكذا نفجر الكرية الحمراء بما فيها ونحرر ..

يا له من مشهد ! مشهد يذكرك بغلاف مجلة أطفال من مجلات (مارفل) أو (دى سى كوميكس) ، حيث الأبطال الجبابرة يحلقون نحوك بينما فى الخلفية ينفجر كوكب ما إلى فتات ..

سوف يتكرر هذا الانفجار كلما هاجمنا كريات أخرى ، وسوف يحدث كل أربعة أو ثلاثة أيام ..

بما أننا ننتمى لأسرة تدعى (فالسبيارم falciparum) ؛ فإن هذا التحرر يحدث فى الشعيرات الصغيرة العميقة البعيدة عن السطح ، ولهذا حدث أكثر من مرة أن فشل العلماء فى العثور علينا فى أوعية الدم السطحية السهلة قريبة المنال ..

بالطبع ليس تدمير الكريات الحمر سهلاً ..

على الأقل ليس سهلاً بالنسبة للمريض ..

هذه هى اللحظة التى يبدأ فيها المرض بأعراضه المعروفة الكريهة ..

اللحظة التى يبدأ فيها كل شىء ..

2- هو..

أعطاه (علاء) بعض أقراص الأسبيرين والفييتامين (ج) ثم حمله إلى فراشه حملاً كما يفعلون مع الأطفال ..

كانت الردهات خالية وهو لا يكف عن الرجفة وأسنانه تصطك ، حتى أن (علاء) وجد صعوبة في جعله يقف على قدميه ريثما يفتح باب غرفته بالمفتاح الذى وجده فى جيبه ..

- « هيا .. إلى الفراش .. لا تكن طفلاً .. »

كانت غرفته ساذجة بسيطة مثله .. حتى الصور المعلقة هى للاعبى كرة قدم وهناك صورة له مع أسرته .. صورة عملاقة لـ (ميل جيبسون) فى فيلم (القلب الشجاع) باعتباره كان يودى دور بطل أسكتلندى ..

ألقى به فى الفراش كما يلقي الشيء ، ونزع حذاءه ..

كان يرتجف كورقة لذا تأكد (علاء) من وضع الأغطية فوقه بإحكام ، ونزع نظارته عن عينه ، وقال :

- « فى الصباح ستكون على ما يرام .. لا تقلق .. »

قال الطبيب أحمر الوجه فى رعب :

- « هل .. هل .. هل تعتقد أن الأمر خطير ؟ »

حك المصرى لحيته مفكراً ، وقال :

- « أنت تعرف القائمة الكبيرة للأمراض التى تبدأ برجفة .. أعتقد أن إصابتك بالإنفلونزا احتمال وارد .. على كل حال لقد تعلمت أنه من الصعب أن تحاول تشخيص أى مرض بعد عشر دقائق من ظهوره .. أقترح أن تنام .. »

- « سد .. سأحاول .. ول .. ول .. »

من العسير كذلك أن تطلب عوناً بينما الرجفة لم تبدأ إلا منذ وقت وجيز .. ربما كان الأمر طارئاً ..

هكذا ترك له النور مضاء وتمنى له ليلة سعيدة ثم فارق الغرفة ..

وفى غرفته تناول علاج المعدة وشرب بعض اللبن .. لقد صار اللبن متغلغلاً فى حياته بشدة منذ هاجمته آلام المعدة تلك ...

راح يتأمل السقف مفكراً .. هل هى الملاريا ؟ مستحيل .. إن كل أفراد وحدة (سافارى) يتعاطون الأدوية الواقية منها بشكل منتظم .. عندما تحدث الملاريا هنا فإنها لا تمزح لأنها من النوع المدعو (falciparum) وهو نوع لعين .. يطلقون عليها (الملاريا الخبيثة) .. أضف لهذا أنها تقاوم العلاج بشكل شرس ..

لهذا لم يكن أى واحد من أفراد (سافارى) على استعداد لتجربة حظه .. إن ابتلاع بعض الأقراص بشكل منتظم قد ينقذ حياتك ..

فى الصباح كان أول ما فعله (علاء) هو أن زار مريض البارحة ، الذى لم يعد قادراً على أداء عمله ..

كان راقدًا فى الفراش منهكًا شاحب الوجه وقد غمر العرق وجهه وحول رأسه ارتسمت بقعة بلل عملاقة على الوسادة .. لم تكن ليلته مرحة جدًا كما هو واضح .. ارتفاع حرارة وعرق ، فلا بد أن الهلوس لم تفارقه لحظة ولا بد أنه رأى جميع أنواع الكوابيس بدءًا بالوطاويط مصاصة الدماء وانتهاء بعودة زوج خالته من القبر .. الأسوأ أن يكون زوج خالته حياً أصلاً ..

جرع (علاء) جرعة من دواء المعدة وسأله على سبيل تحصيل الحاصل :

- « هل من تحسُن ؟ »

قال الأسكتلندى المنهك :

- « لا .. لقد عاودتنى الرجفة ست أو سبع مرات .. كانت الغرفة تهتز بالكامل .. وخزانة الثياب تصر .. »

هذه كانت من الأساليب المحببة لتشخيص الملاريا فى الماضى .. عندما تهتز أنت فقط فهى حالة إنفلونزا .. عندما تهتز أنت والفراش فهذه حالة صدمة عصبية أو التهاب بالحالب .. عندما تهتز الغرفة كلها فنحن نتكلم عن الملاريا ..

- « هل من أعراض جديدة ؟ »

- « لا .. كل شىء غامض كما هو .. »

- « أفترض أنك لم تتوقف عن تعاطى الوقاية من الملاريا ؟ »

- « من المخبول الذى يجروُ على التوقف ؟ »

تذكر (علاء) زوجته الحسناء (برنادت) التى أصيبت ذات مرة بلعنة جعلتها ترتجف بلا انقطاع .. تلك اللعنة الأفريقية التى اتضح أنها لم تكن كذلك .. (كليمنجارو) .. التسلق .. الظاهرة .. ياه ! هل مر على هذه الأحداث قرن أم قرنان ؟ لا تقل لى من فضلك أن ثلاثة أعوام لا أكثر قد مرت ..

على كل حال قد اتخذ (علاء) قراره . لابد من رأى ثالث .. ولم يكن بالطبع معتوهاً .. يمكنه قطعاً علاج مريض يعانى الرجفة ..

لكنها تلك العقدة التى تصيب الأطباء عندما يتعاملون مع زميل أو قريب .. ذلك الإحساس العالى بالمسئولية والرغبة فى حكمة الرأى الآخر ..

هكذا اتصل (علاء) بمدير الوحدة ، وبعد قليل جاء إلى الغرفة د . (توماس أبلتون) ، وهو طبيب بريطاني مختص بطب

المناطق الحارة .. رجل فى الأربعين من عمره ، له عينان رماديتان مذعورتان ولحية شقراء جميلة ورأس أصلع أكثر جمالاً ، وقد فحص الطبيب المريض بسرعة ، وتحسس عنقه ومر يده على أعلى فخذه وأنصت إلى صوت تنفسه ، ثم قال :

- « طبعاً لابد من إجراء بعض الفحوص .. قد تكون هذه ملاريا وقد لا تكون .. لكن الالتهاب الرئوى والتهاب الحالب يحدثان ذات الصورة .. »

قال (علاء) فى تفلسف :

- « والإنفلونزا نفسها .. »

- « والإنفلونزا نفسها .. قد يكون مصاباً بأى شىء

أو لاشىء ... »

ثم نظر إلى الأسكتلندى المريض ، وقال له :

- « سوف تبقيت فى غرفة خاصة بك يا (سميث) . ليس من المناسب أن تمضى الليل فى غرفتك وحيداً .. »

هز (ماكفادين) رأسه وكان منهكاً بحيث عجز عن الاعتراض أو قول شىء .

الآن انتقل (ماكفادين) بسهولة تامة من خانة الطبيب إلى خانة المريض .. المريض الذى يرقد فى فراش وتأتى ممرضة لتأخذ عينات بالمحقن من ذراعه ..

قال (أبلتون) :

- « أعتقد أنها هى الملاريا .. »

قال (علاء) فى دهشة :

- « إنه يتعاطى الأدوية الواقية .. »

- « ربما لم يفعل أو حدث خطأ ما .. على كل حال سوف

نعرف أكثر من فحص الدم .. »

- « وماذا عن الأطوار الثلاثية الشهيرة .. البرد .. الحر ..

العرق ؟ لا أعتقد أنه مر بها بانتظام .. »

- « هذه الأعراض تتشابه مع أمراض أخرى عديدة .. دعك من أنها قد تكون غائبة .. لقد تعلمنا أنه لا يمكن ترك المريض يموت لأن هذه العلامات الثلاثية لم تظهر عليه .. »

وهكذا ترك (علاء) مريضه وصديقه وقرر أن يمر عليه ليلاً ليعرف ما حدث ..

3- أنا ..

ملاريا .. لفظة لاتينية قديمة معناها (الهواء الفاسد) ..

هذه التسمية التي افترنت باسمى كان سببها الاعتقاد القديم أن الهواء الفاسد هو الذى ينقل هذا المرض ، ولهذا كان اسماً أيضاً (حمى المستنقعات) .. فى العربية يفضلون تسميتى بداء (البرداء) ..

لقد خاض العالم حرباً علمية بالمعنى الحرفى للكلمة إلى أن عرف من أنا حقاً .. سوف أحكى القصة كاملة بعد قليل ، لكنى منكم فى هذه اللحظة فأرجو أن تسامحونى على ذلك ..

نحن الآن نعيش داخل الكريات الحُمُر ، ونتكاثر .. ونبفجر من حين لآخر لنبدأ دورة جديدة ..

بعضنا يزداد نضجاً ويمكن القول إنه فى فترة المراهقة بلغتكم .. إنه البلوغ .. لقد بدأ هؤلاء يتحولون إلى أشكال تدعى (الجاميتات) ..

هناك جاميتات وسيمة مفتولة العضلات هى التى تلعب دور الذكور ، وهناك جاميتات حسنة رشيقة تلعب دور الإناث .. لا بد أن هناك الكثير من (الفيديو كليب) كذلك ..

لكن لحظة الزواج لم تأت بعد ..

لا يمكن عقد حفل الزفاف إلا فى جوف بعوضة !

مكان غريب وغير رومانسى بالمره لحبيبين يلتقيان للمرة الأولى ، لكنك تنسى أن الشاعرية تعنى عند الملاريا أشياء أخرى غير ما تعنيه عندكم .. اختلاف ثقافات .. اللون الأبيض يرمز للموت عند اليابانيين ، واللون الأحمر لون الفرحة عند الصينيين ، فلماذا لا يكون جوف البعوضة مكاناً رومانسيا بالنسبة للملاريا ؟

فى جوف البعوضة الأحمر الرومانسى الأنيق عطر الراححة بالنسبة لنا ينضج الجميع .. يصير الصبيان شباباً وتصير البنات فتيات ..

يتم التزاوج الأسطورى الذى يحمل سر الخليقة .. إنه ذات السر المقدس الذى منحه الله إلى الإنسان والأفيال والثعالب والفقمة والذباب وطفيل الملاريا ..

يخترق الجنين أمعاء البعوضة ليستقر فى التجويف خارجها ..

سوف ينمو الجنين ويصنع آلافاً من تلك الخلايا المعدية التى

تهاجر لفم البعوضة ..

هناك تنتظر فى نهم اللحظة التى تثقب فيها البعوضة جلد إنسان آخر ..

ليكن من يكون ..

ليكن فلاحاً أفريقيًا يمشى وقت الغروب بحثاً عن ماشيته ..

ليكن مستكشفاً بريطانيًا يدخل الغليون ، ولا يعرف ما ينتظره من هول فى هذه الأصقاع ..

ليكن طفلاً نائمًا بلل العرق جبينه واختلط بخصلات شعره ..

ليكن امرأة .. ليكن صياداً من (تايلاند) أو شاعراً من اليابان ..

ليكن طبيبياً فى وحدة (سافارى) ..

ليكن أى شىء ..

لقد مر أسبوعان تقريباً ..

والطفيل الذى دخل جسم الإنسان بريئاً لا يفقه شيئاً ، قد صار كأننا شيطانياً يعرف ما يجب عمله ..

ثمّة إنسان آخر سوف يصاب بالملاريا هذه الليلة ..

هذه هي الدائرة الجهنمية .. الإنسان يعدى البعوضة والبعوضة
تعدى الإنسان ..

هكذا للأبد ..

إنه القرن التاسع عشر ..
لقد تلقت الطفيليات الأخرى التي تنقلها الحشرات عدة ضربات
قاصمة .. للمرة الأولى عرف الإنسان أن الحشرات تنقل أمراضاً ..
هو ذا (تيوبولد سميث) الأمريكى يكتشف ذلك ويعرف أن القراد
ينقل حمى (تكساس) التي تبديد الماشية .. وها هو ذا (بروس)
فى هذه الأرض بالذات - الناتال - يكتشف سر مرض النوم ، ويعرف
أن ذبابة الـ (تسي تسي) هي التي تسبب هذا كله ..

ظللت أنا لغزاً .. لم يكف الناس عن اعتقادهم أن الملاريا
تنتقل بالهواء الفاسد ..

هل تعتقد أننى مرض هين ؟ فى ذلك الوقت كان هناك خبر فى
الصحف عن اجتياحى لجزر بين اليابان وفرموزا .. لم يولد أى
طفل فى تلك القرى لمدة ثلاثين عاماً ! فى إحدى القرى لم يبق
إلا امرأة عجوز واحدة حية !

هل تحسبني مدلاً ؟ إذن اقرأ ما فعلته بالجنود الأمريكيين فى
الملايو .. يمكنك القول بلا تردد إننى أقوى من الجيشين
الأمريكى والبريطانى معاً ..

لكن افتضاح سرى كان مقدراً على يد اثنين من أغرب العلماء الذين
يمكن لك أن تتخيلهم .. الأول بريطانى يدعى (روس Ross)
والآخر إيطالى يحب السباب يدعى (جراسى Grassi) ..

الطبيب الأول (روس) تاريخ طويل للفشل .. هذا الرجل يمكن أن
يكون أى شىء سوى عالم .. لقد درس الطب لكن خياله كان مثقلاً
بالموسيقا والشعر برغم أنه لم يكن يملك أية موهبة فيهما ..
يقولون إنه كتب ألحان وأسوأ أشعار فى تاريخ الأدب
والموسيقا ..

وجد عملاً كطبيب فى البحرية ، وقد رحب بهذا ليفر من أبيه
الطاغية .. وانتهى به المطاف فى جو الهند الحار الرطب يخدم
العلم البريطانى ..

ما أغرب هذا الرجل الذى قدر له أن يقضى على ! لقد كان
الهواء فى الهند مستنقعا للميكروبات .. كان الماء حساء
ميكروبات .. هناك بكتريا قاتلة تحت كل حجر وفى كل منحى ..
لو أنك دخلت فراشك ليلاً لوجدت وباء ينتظرك .. لكن (روس)

لم يلحظ فى هذا أى شىء يثير اهتمامه .. كان من الطراز الذى يصحو من النوم شاعراً ثم يتحول إلى عالم رياضيات عند الظهر ، وفى المساء يتحول إلى مكتشف ، ثم يقرر أن يكون بطل العالم فى لعبة الجولف ، وفى النهاية ينام مرهقاً غارقاً فى العرق ..

ثم قرر فجأة وبلا سبب أن يدرس الملاريا ، وبدأ يفحص دماء الهنود حتى كان الناس يفرون منه ويطلقون عليه (البريطانى المجنون) .. وكانت خلاصة أبحاثه هى أن الملاريا ليست مرضاً معدياً بل هى نتيجة للاضطرابات المعوية !

فى سن السادسة والثلاثين كتب فى مذكراته : « كل شىء جربته أو وضعت أنفى فيه فشل فشلاً ذريعاً ! »

عاد إلى لندن محبطاً ليلقى سير (باتريك مانسون) .. الرجل الثانى المهم فى قصة كشف اللغز ..

كان (مانسون) طبيباً بريطانياً اكتشف بعض الأشياء المهمة عن داء الفيل .. إنه أول من لاحظ أن البعوض ينقل هذا المرض من إنسان لآخر .. وقد سبب هذا الكشف له نوعاً من الهوس والخبال .. لم يعد يتكلم إلا عن البعوض .. كل شىء ينسبه للبعوض ..

التقى الرجلان .. مجنون البعوض والطبيب الشاعر ..

(روس) الذى سيقضى بقية حياته مع البعوض ، كان يتكلم عن (الناموس) و (البعوض) باعتبارهما شينين مختلفين ، بينما (مانسون) كان يؤمن أن البعوض يمتص الدم مرة واحدة فقط فى حياته ..

لكن (مانسون) كان قد لاحظ عدة أشياء فى دم المصابين بالملاريا .. وقد عرض شرائح مجهرية على (روس) تظهرنى وأنا أحتل الخلايا الحمر ، أو لحظة انفجارها ..

- « هذه الأهلة الصغيرة التى تراها تحت المجهر هى طفيل الملاريا .. السؤال المهم هنا هو : كيف ينتقل هذا الطفيل من إنسان لآخر ؟ »

وبما أن (مانسون) كان مصاباً بوسواس البعوض ، فقد كان يؤمن أن البعوض هو الذى ينقل هذا المرض .. لقد عرفنا بعد ذلك أن هذا صحيح لكن كيف ينقل البعوض المرض؟ وكيف تبرهن عنه ؟

تحمس (روس) للأمر ، فقد كان غارقاً فى الأحلام الرومانسية .. سوف يتخلص العالم من هذا الداء ، وسوف يكون هو - (روس) - المنقذ ..

« سأعود للهند يا سيدى فدعنى أتول هذه المهمة ! »

لم يكن يفرق بين الناموس والبعوض ، بينما (مانسون) كان يؤمن أن البعوضة لا تأكل إلا مرة واحدة فى حياتها وتموت بعدها .. وقد حاول (روس) أن يبحث فى المكتبات عن معلومات تتعلق بالبعوض لكنه كان عاجزاً عن البحث فى المراجع ..

هكذا انطلق إلى الهند من جديد وقد عزم على أن يكون الرجل الذى يخلص العالم منى ..

فى الهند اعتبروه مخبولاً ..

كان يجمع الهنود التعساء المصابين بالمalaria ويضعهم تحت ناموسيات ، ويقضى الوقت فى أخذ الدم منهم ..

صار خبيراً فى فحص الدم والعثور على العلامات التى تدل على أنى هناك .. وكان يهيم حباً بكل مريض يمتلك دمه بى ، ويكره كل من بدأ فى التحسن ..

علم البعوض كيف يمتص دماء المرضى ، ثم وضع البعوض فى الماء وجعل الأصحاء يشربون هذا الحساء الفظيع ! كانت هذه نصيحة (مانسون) الذى آمن بأن الملاريا تنتقل عن طريق شرب الماء الذى غرق فيه البعوض ..

شرب (عبد الوهاب) الهندى البائس لترات من هذا الحساء ، لكنه لم يمرض .. فقط ارتفعت حرارته مرة واحدة لكنها لم تكن الملاريا للأسف ..

انتقل (روس) إلى فرم البعوض وإطعامه للأصحاء ... لكن لم يمرض أحد ..

كانت أبحاث (روس) أبعد ما يكون عن المنطق .. لم تكن لديه أية طريقة علمية .. كان مجرد شاعر محموم يحاول عمل كل شىء فى ذات الوقت ..

وكان يجلس فى الليل الهندى الرطب ينظر إلى الميكروسكوب الذى جعله العرق يصدأ .. لم يستعمل المروحة لأنها تطرد البعوض ..

وعلى الورق الذى تجعد من العرق راح يكتب شعره الردىء :

ما الذي يسقم العزلة ؟

أتراه يوم الدينونة ؟

السماء حمراء كالدم ..

والصخور تتحلل في ذاتها ..

في ليلة التاسع عشر من أغسطس راح يشرح بعوضة تحت

المجهر .. لم يكن يعرف شيئاً عن البعوض ؛ لذا أطلق على

هذه البعوضة المصطلح العلمي المعقد (بعوضة بنية صغيرة) ..

هذه البعوضة كانت قد لدغت مريضاً يدعى (حسين خان) ..

راح يفحص أعضائها .. وفجأة تصلب الشعر في مؤخرة

عنقه ..

وسط الخلايا التي تبطن جدار المعدة كانت هذه الكرة غريبة

الشكل .. إنها ليست وهماً .. إنها موجودة بالفعل !

هذه الخلايا تحمل الصبغة السوداء المميزة للملاريا .. هذا

واضح ..

إنها الملاريا بلا شك !

لقد انتقلت من المريض (حسين خان) إلى البعوضة عن طريق اللدغة ، وقد استقرت في أمعائها .. إنها هي ! لابد من ..

لابد من .. لابد من كتابة شعر الآن :

لقد كشفت النقاب عن أفعالك

أيها الموت قاتل الملايين !

أين راحت لدغتك أيها الموت ؟

أين راح قبرك وأين نصرك المكين ؟

لم تكن هذه طريقة بحث علمي .. فمن الممكن أن يكون هذا البعوض قد امتص دماء حيوان آخر قبل أن يلدغ (حسين خان) ،

لكن بالنسبة لـ (روس) لم يكن النقاش المنطقي ممكناً ..

لقد كتب لـ (ماتسون) يقول :

- « رأيتني متحوصلاً في معدة ثلاث أو أربع بعوضات ... وجدت

نفسى في حجم صغير .. لكنى نموت من حوالى سبعة أجزاء من

ألف جزء من البوصة إلى سبعة أجزاء من مائة جزء من

البوصة خلال 48 ساعة من اللدغة ! »

هذا المخبول الذي ذوب الحر عقله يتكلم بصيغة الضمير الأول عن طفيل الملاريا ! عنى ! لقد انكمش وانكمش حتى صار فى حجمى وصار يفكر مثلى !

واصل تجاربه على مدى عام . واستطاع أن يرى كيف تخرج تلك الأجسام الصغيرة المغزلية لتملأ جسد البعوضة وتتجه إلى الفم ..

« لا أساس للاعتقاد بأن البعوض الميت ينقل العدوى عبر مياه الشرب ... »

كتب له (مانسون) يهنئه على الاكتشاف . لكنه يخبره أن الموضوع فى البداية فقط ، وعليه أن يبقى فى الهند أكثر حتى يعرف كل شىء عن هذا الطفيل .. حتى (كوخ) العظيم أجرى تجارب فى إيطاليا على الملاريا ولم يصل لشىء .. لماذا لا تتكرر التجارب ؟ لماذا يرفض بعض البعوض لدغ المرضى ويقبل البعض ؟ لماذا لا تنمو هذه الكريات فى معدة كل أنواع البعوض ؟

لكن (روس) كان قد انتهى ...

ككل هذه الشخصيات (الاكتئابية الالبساطية) كان حماسه قد نفذ ولم يعد يتحمل البقاء فى الهند الكريهة يوماً واحداً بعد ذلك ..

لقد بلغ نهاية الحبل الخاص به ..

كان يحلم بالتكريم .. بالصفحات الأولى من الجرائد .. بالمآدب .. بالحسنات .. والحقيقة أنه نال على الأقل جزءاً من شرف الكشف عنى .. النصف .. وقد حصل على جائزة نوبل التى استحقها برغم كل شىء .. لكنه لم ينل الشرف كله ..

لقد ترك الشعلة لإيطالى مجنون متحمس هو (جراسى) ..

3- هو ..

لم يكن شيء قد تغير .. فقط جاء عدد لا بأس من الأطباء
لزيارة (ماكفادين) ..

تناثرت صور أشعة الصدر وتقارير تحليل البول في الأيدي ..
لكن كان جلياً أنه لا مشكلة هناك ...

وعلى الفراش الذي رسموا عليه خارطة الحرارة ، كان بوسعك
أن ترى أن الارتفاع والانخفاض أقرب إلى تخطيط لتيار كهربى
متردد .. إن حرارته تكون 39 درجة مئوية عدة مرات فى اليوم ..
وكثيراً ما تصير عادية ..

هذه هى الحمى القلقة (hectic fever) المعروفة طبياً ..

بالطبع كان (ماكفادين) منهكاً محمر العينين غارقاً فى العرق ..
فلا أحد يجرو على إعطائه مخفضات حرارة قبل متابعة الحمى جيداً ..
هذه المخفضات تريح المريض لكنها تتعب الأطباء أكثر ... لهذا
بدا منظره كشخص كان يخوض سباق (ماراثون) أو كأنه يتلقى
الصفعات بشكل منتظم ..

نظر طبيب أفريقى إلى الخارطة ، ثم قال :

- « حمى قلقة ... هناك صديد فى مكان ما من جسده .. صورة
الدم توحى بهذا على كل حال .. »

قال (أبلتون) :

- « أو ربما هى الملاريا .. أحياناً تتصرف بهذا الشكل .. »

- « دمه خال تماماً منها .. لكن يمكن إجراء اختبار مصلى .. »

على كل حال صارت السياسة واضحة .. لا بد من رؤية كل
شئ .. الرؤية صارت أسهل اليوم فى وجود الأشعة الصوتية
والأشعة المقطعية .. هذا شئ لم يحظ به كل هؤلاء العلماء
السابقين الذين كانوا يتعاملون مع صندوق مغلق بالمعنى الحرفى
لللمة .. صندوق مغلق به كرات لا تعرف عددها ولا لونها ،
وعليك أن تحدد عدد الكرات ولونها معتمداً على صوت الدحرجة
الذى يميز الكرة الحمراء عن الزرقاء عن الصفراء !

كان (علاء) هناك وقد شعر بأن كل شئ يذكره بما حدث
لزوجته من قبل ..

هكذا نقلوا الطبيب الأسكتلندى الذى صار عاجزاً عن المشى

إلى قسم الأشعة ..

وقف (علاء) جوار (أبلتون) وطبيب الأشعة الصوتية وهو طبيب ألماني بدين مرح ، وراح يراقب الشاشة حيث تولد تلك الأشكال الشبيهة بصور الرادار ..

الكبد .. لا مشاكل .. الكليتان .. لا مشاكل .. البنكرياس ..

ثم عاد الطبيب الألماني يضع قطب الجهاز على كبد الأُسكتلندي ..

هنا رأى (علاء) ذلك التجويف الصغير غير منتظم الشكل .. لقد فاتهم أول مرة ..

همس في أذن الرجل وهو يشير على الشاشة :

« ما هذا ؟ »

قال الطبيب فى عصبية :

« لا تلمس الشاشة ! لا شيء يضايقتنى أكثر من التعامل مع

شاشة تعج بالبصمات .. هذا خراج صغير .. »

ثم ضاقت عيناه ونظر لـ (علاء) ، وهمس بدوره :

« خراج كبدى صغير الحجم لكنه يفسر كل شيء .. »

هنا برغم الهمس صاح (ماكفادين) فى هستيريا :

« خراج كبدى ! أنا أصبت بخراج كبدى ! »

قال الطبيب الألماني بلهجة من يهدئ من روع طفل :

« على الأقل وجدنا شيئاً .. »

وقال (أبلتون) :

« هذا لا يفسر كل شيء .. لقد كان سليماً تماماً .. ألا توجد

أعراض منذرة ؟ هل حدث هذا فجأة ؟ »

قال (ماكفادين) وهو يرتجف وينظر إلى السقف :

« كنت أشعر ألماً فى هذا الموضع منذ فترة .. أحياناً كانت

حرارتي ترتفع أو كنت أعتقد هذا ، ولكنى كنت أعتبر هذه أعراضاً

أتفه من أن تذكر .. فجأة انهار السد ليلة أول من أمس .. »

قال (أبلتون) وهو يحك رأسه :

« كالعادة تتكرر القاعدة .. لا يوجد شيء أكيد أو ثابت فى

الطبيعة .. لكن الطريقة العلمية صحيحة على الأقل .. نحن لم نتأخر ..

ها قد وجدنا ما كنا نبحث عنه ولما تمر أربع وعشرون ساعة .. »

ثم حك رأسه ، وقال :

« سوف يكون علينا إجراء اختبار مصلى للتأكد من كونه

أميبياً أم بكتيرياً .. »

سأله (علاء) فى حماس :

- « ألن نسحب منه عينة بالمحقن لنحلل محتواه ؟ »

صاح (ماكفادين) فى رعب كأنه طفل :

- « لا أحد ! لا أحد يضع إبرة فى كبدي !! »

قال (أبلتون) لـ (علاء) باسمًا :

- « الأطباء أسوأ المرضى طراً .. هذا معروف .. سوف نؤجل

هذه الخطوة بعض الوقت إلى أن نفشل فى التشخيص بسبل أخرى ..

والآن قاوم هذه الشهوة التى تسرى فى عروقك يا صديقى الشاب ..

شهوة غرس الإبرة فى أى شيء .. كل الأطباء الشبان يعانون هذا

المرض .. سوف نؤجل هذا الحقل بعض الوقت ! هيه ! هل

تسمعنى ؟ »

لكن (علاء) لم يكن مصغياً ، وللحظة بدا كأنه فى عالم آخر

ثم تاب إلى رشده .. قال وهو يهز رأسه :

- « نعم .. نعم .. لا حقن يا سيدى . »

بدت على ملامح (ماكفادين) أمارات الراحة ، لكنه ظل قلقاً

برغم كل شيء ..

هكذا انتهت قضية (ماكفادين) ..

لم تكن هى الملاريا .. ومن الواضح أنه سوف يتحسن ..

ومن الواضح أن الإبرة لن تغرس فى كبده ..

لقد بدأت الحمى تزول .. زالت الرجفة ..

وبدا ذلك الخراج فى كبده ينكمش ..

إن الأمور تتحسن ..

لكن (علاء) لم يزره مرة أخرى ، وقد سأله أحد الأطباء عن

حال (ماكفادين) فتساءل (علاء) :

- « (ماكفادين) من ؟ »

صاح الطبيب فى غيظ :

- « رئيسك ! »

هنا هتف (علاء) وهو يضرب جبهته :

- « نعم .. نعم .. يقال إنه يتحسن باستمرار . »

ثم انطلق (علاء) إلى الكافتيريا .. كان هذا وقت الغداء وكان

الزحام شديداً .. كائن عملاق له ألف ذراع ووجه وصوت يطلب

دوره فى الطعام .. عرق .. صخب .. حر ..

توقف (علاء) وجفف عرقه وراح يراقب طبيباً غريباً قصير القامة يقف أمامه فى الصف ، يضع كرات اللحم فى طبقه .. إنه يضيف المزيد من الكرات .. يضيف .. ثم يتوقف .. يفرغ الطبق من جديد ويتجه لاختيار بعض شرائح السمك .. هكذا أوشك الطابور على التحرك .. لكن الطبيب قصير القامة تراجع للخلف وقرر من جديد أن كرات اللحم أنسب له ..

قال (علاء) فى صوت خفيض :

- « هيه .. هل أنت أستراالى ؟ »

نظر له الطبيب فى حيرة ، وقال :

- « لا .. أنا نيوزيلندى . »

- « ته قعت هذا .. لم أفر حباته بغلاً أستراالى أغم منك ! »

وقبل أن يرد الطبيب صاح (علاء) :

- « فليجلب كل وسادته .. إن هذا الأخ ينوى أن يقضى الليل

فى الاختيار بين السمك وكرات اللحم .. »

قال طبيب ثالث يقف خلفهما :

- « اهدأ قليلاً .. لا مشكلة .. دعه يحزم أمره .. »

لكن (علاء) كان بالغ العصبية .. احمر وجهه وسال عرقه وتساقط اللعاب من فمه ، حتى أن الطبيب قصير القامة أثر ابتلاع الإهانة بدلاً من مجابهة هذا المجنون ..

فقط قال وهو يبتعد مسرعاً ، وبصوت خفيض :

- « حيوان فظ ! »

وقف (علاء) يحملق فى إثناء كرات اللحم ، ثم نقل لنفسه كمية وافرة منها فى الطبق حتى أن عدة أطباء راحوا ينظرون له فى دهشة .. فقال بالعربية وهو يلوح بكف مفتوحة فى وجوههم :

- « تبأ لعيونكم الحسود ! »

الحقيقة أنهم لم يكونوا يعرفونه جيداً ؛ لأنه لا يأكل اللحم هنا أبداً لأسباب دينية .. كان يحصل على حاجته من اللحوم فى

بملاكمها باكسباته من فى افار من ك ان كة

بالأسماك .. وهذا الذى قام به يعنى انه تبارد الدهن

يعنى أنه ليس على ما يرام ..

4- أنا ..

يخرج (روس) ..

يدخل (جراسي) ..

(جيوفاني باتستا جراسي Grassi) ..

اسم إيطالي جدا .. أليس كذلك؟ إنه كذلك بالفعل .. وهو طبيب حقاً لكن اهتمامه الأكبر كان في علم الحيوان .. هذا الرجل عالم حقيقي لكنه لن ينال جائزة (نوبل) كما حدث مع (روس) ، ولسوف لا يذكر الناس إلا اسم (روس) كلما ذكرت كلمة ملاريا برغم أنه لعب الدور الأهم ..

لقد درس النمل الأبيض .. وصار أستاذاً في علم الحيوان وهو في التاسعة والعشرين ، مما يدل على أنه كان قادراً على البحث العلمي حقاً ، وهو بهذا يختلف عن الفاشل العظيم (روس) .. كان يعشق العمل وقد قسم البشر إلى ثلاثة أنواع :

- « البشر ينقسمون إلى من يعملون .. ومن يتظاهرون بأنهم يعملون .. والذين لا يفعلون هذا ولا ذاك !! »

كنت أنا في ذلك الوقت أسيطر على إيطاليا بالكامل .. حتى (موسوليني) لم يضع إيطاليا في قبضته بهذه الطريقة ..

في هذا الوقت وصل القيصر العظيم (كوخ) إلى إيطاليا ليدرس الملاريا .. كان هذا كفيلاً بأن تشتعل حماسة (جراسي) الوطنية .. إنه لن يترك هذا الألماني يشفي أهل وطنه ، وهم يعرفون أن (كوخ) لا يدس أنفه في وباء ما إلا وقضى عليه .. كان (كوخ) بحاجة إلى نصر صغير بعد طلاقه من زوجته ، وبعد فشل لقاح للدرن ابتكره ؛ لذا راح يجوب العالم بحثاً عن أوبئة يكافحها ..

في هذا الوقت أيضاً بدأ الناس يسمعون عن تجارب (ليوبولد سميث) وسرت إشاعة أنه ربما كان البعوض هو المسئول عن نقل الملاريا .. الناس قالوا هذا لكن العلماء قالوا :

- « هراء ! الملاريا تنتقل عن طريق الهواء الفاسد .. هذه حقيقة معروفة .. لا يمكن للعلم أن يتقدم معتمداً على خرافات العامة هذه ! »

لكن (جراسي) كان مستعداً للإصغاء .. (ليوبولد سميث) فعلها وفعلها (بروس) من قبل .. مهما كانت مفاهيم العامة مختلطة فإن الحكمة الشعبية لا تخطئ غالباً ..

قابل (جراسى) العالم الألمانى العظيم فى حفل عام ، فقال له :

- « إن نظريتى بسيطة .. حيث توجد ملاريا يوجد بعوض »

أشعل (كوخ) غليونه ونظر له من خلال الدخان ، وقال بلكنته الألمانية الثقيلة :

- « ماذا فى ذلك ؟ »

- « المشكلة هى أنه حيث يوجد بعوض لا يجب أن تكون هناك

ملاريا .. »

- « إذن ؟ »

- « هذه معضلة منطقية .. إما أن البعوض لا علاقة له بالملاريا ،

وإما أن نوعاً واحداً فقط من البعوض هو الذى ينقل الملاريا ! »

- « همف ف ف .. »

هكذا انطلق (جراسى) حاملاً أنابيب اختباره يجوب مستنقعات

إيطاليا كلها .. الأماكن التى لا يمكن أن يجتازها إلا مخبول ..

والورقة التى كان يلعب بها هى أنه خبير فى البعوض .. لم

يكن مثل (روسى) عاجزاً عن تمييز البعوض ، أو يعتقد أن

البعوض حشرة أخرى غير الناموس ..

يسمع صوت البعوضة فيبحث عنها .. يضع فوقها أنبوب

الاختبار ويسده بإصبعه ثم يثبت السدادة .. كنت تراه داخل

الأديرة يفحص الجدران .. تراه حول أسرة الأطفال .. تراه فى

دورات المياه .. تراه فى غرف نوم القرويين .. كم من عاشق

اختلى بحبيبته فى ضوء القمر قبل أن يشعر بصفعة على قفاه ..

يلتفت ليجد (جراسى) يمسك ببعوضة فى حماس ، ويضعها فى

أنبوب الاختبار ويرحل من دون تفسير أو اعتذار !

فقط عندما كان يدرك أنه لا توجد ملاريا فى المنطقة كان

يطلق سراح البعوضة ، ويقول لها :

- « أنت بريئة ! هيا .. طيرى ! »

كان يدخل بيوت الفلاحين ليبحث وراء الأيقونات .. يبحث فى

الكرار .. يفتش فى الأحذية .. يبحث عن البعوض فى كل صوب ..

حيثما وجدت الملاريا كان يجد تلك البعوضة التى يسميها الفلاحون

(زانزارونى) .. وفى نفس المكان كانت التوابيت السود تخرج

متجهة إلى المقبرة ..

طبعاً أنت تعرف الآن شكل هذه (الزانزارونى) .. يمكن لأى

طالب ثانوى أن يجدها فى كتاب الأحياء الخاص به ، وقد كتب

تحت الصورة الاسم الجديد .. (أنوفيليس) Anopheles .. رشيقة جميلة كأنها طائرة (كونكورد) .. ترتفع مؤخرتها فى الفضاء حينما تقف ، وهى علامة مهمة تميزها عن باقى أنواع البعوض ..

من المضحك أن ترى الفارق بين ذكر بعوضة (الأنوفيليس) وأنثاه .. الذكر يعيش على رحيق الأزهار بينما الأنثى تعيش على الدم ! هذا سيروق للكثيرين من أعداء المرأة ، أو الذين يرون أن القصة ذاتها تتكرر مع البشر !

عندما عاد (جراسى) لداره أحكم غلق الحجرة وحرر كل البعوض الذى حصل عليه ثم نام فى الفراش عارى الجذع .. لكن لم يخطر له أن البعوض سوف يتسلل إلى غرفة أمه ليلاذغها ..

- « للأسف لم يسبب لها هذا أى مرض ! »

هكذا كتب فى مذكراته ..

بعد أشهر من التجارب على متطوع يدعى (سولا) ، وصلته مجموعة من بعوض (زانزارونى) جعلها تلدغ الرجل .. بعد عشرة أيام دخل الرجل فى حمى مصحوبة برعشة ..

هذا مهم ! هذا رائع !

أطلق سراح (الزانزارونى) فى غرف المستشفى حيث هؤلاء الذين جاءوا من مناطق لم تعرف الملاريا .. وكانت النتيجة هى أنهم أصيبوا بها ..

أجرى مائة تجربة شديدة الإحكام ، فالحقيقة أنه كان ألين ناقد لنفسه ... وقد فكر فى نقاط تنقض نظريته لم يفكر فيها أحد قط .. حتى احتمال أن يكون البعوض قد ولد مستعداً لنقل العدوى .. حتى هذا الاحتمال استبعده ..

فى النهاية صار واعظاً يعظ بشيء واحد :

- « اقتلوا (الزانزارونى) .. تخلص إيطاليا من الملاريا ! »

وكأنبياء العهد القديم الغاضبين وقف يلوم قومه :

- « يا حمقى ! تمشون فى الشوارع ليلاً ووقت الغروب دون واق يحميكم من لدغات (الزانزارونى) ! لا تخرجوا فى الأمسيات الدافئة ما لم تضعوا لثاماً على وجوهكم وتضعوا القفازات .. »

ثم انطلق إلى أكثر أماكن إيطاليا ازدحاماً بالملاريا .. سهول (كاباتشييو) ..

كان هذا صيف عام 1900 .. نهاية القرن التاسع عشر ولا تعتقد أنها بداية القرن العشرين من فضلك فهذه المعلومة صارت مملة ..

حصل على منحة مالية من ملكة إيطاليا ليطبق فكرته ..
 قام بوضع السلك على نوافذ الفلاحين .. أرغمهم على البقاء فى
 بيوتهم الحارة بعد الغروب .. منحهم مكافآت مالية .. وبخهم ..
 طاردهم .. كأنه طاغية يحمل سوطاً ..

أبقاهم بعيدين عن البعوض وبرغم هذا كانوا يتنفسون الهواء
 الفاسد الذى كانوا يعتقدون أنه يسبب الملاريا ..
 وفى نهاية الصيف لم يصب بالملاريا سوى خمسة أشخاص
 من كل هؤلاء ..

وهكذا عرفت إيطاليا وعرف العالم الحقيقة ..
 لكنى لم أهزم بعد .. ما زالت الملاريا مرضاً خطراً ومهماً ..
 لأن القضاء عليها يقتضى إبادة البعوض ..

كيف يمكن أن تبيد البعوض ؟
 * * *

4- هو ..

فرغ د . (يوكيجيما) طبيب الأعصاب اليابانى من فحص
 المريض ..

أعاد مطرقته إلى جيبه وأضاء جهاز فحص قاع العين وانحنى
 على رأس المريض وفتح عينه ..

قال د . (أبلتون) فى حذر :

- « كن حذراً .. لربما كانت حمى مخية أو التهاباً سحائياً ..
 نحن لا نعرف ما به .. لربما كان يحمل الموت فى أنفاسه .. »

ثنى د . (يوكيجيما) عنق المريض ، وقال :

- « لا أظن هذا .. إنه لين تماماً .. لا توجد علامات التهاب
 فى السحايا .. »

ثم راح يفتش جوار الفراش بحثاً عن زجاجة الدواء التى
 ستفسر كل شىء .. وقال وهو يمسك بشريط دواء :

- « لا أجد زجاجة فارغة .. لا أعتقد أنه حاول الانتحار بتعاطى
 منوم ما .. »

- « ليس من الطراز الذى ينتحر على قدر علمى .. »

تفحص الياپاتى الشريط شبه الفارغ ، وقال :

- « (دوكسيسيكلين) .. لقد كان يأخذ أدوية الوقاية من الملاريا

بانتظام .. »

- « أعتقد هذا .. إن لم يكن الشريط قديماً .. »

فى هذا البلد حيث بدأت مقاومة الملاريا تتزايد ، لم تعد الأدوية

التقليدية صالحة لحمايةك ، لهذا يعتمدون كثيراً على كبسولة

(دوكسيسيكلين) يومياً .. هذا بالطبع شاق ويسهل نسيانه ، دعك

من أنه أسلوب وقاية لا يناسب الأطفال ولا الحوامل ..

تحسس الياپاتى جسد المريض .. بالتأكد كانت حرارته مرتفعة

جداً ..

قال وهو ينهض :

- « هذه حالة حمى مصحوبة بغيوبية .. غيوبية عميقة جداً ..

الاحتمالات عديدة كما تعرف .. يجب أن ينقل للعناية المركزة

الآن .. أريد فحصاً للمخ بالأشعة المقطعية حالاً ... أريد عينة

من السائل النخاعى الشوكى .. »

إن الاحتمالات كثيرة ، لكن الملاريا المخية هى أول احتمال فى

المناطق الحارة .. الجميع يعرف هذا ..

وفى العناية المركزة رقد المريض لا يعرف ما يدور من حوله

ولا ماذا يقال .. هل هو حلم طويل ؟ هل يقترب من الأبدية

ويعرف ما عرفه هؤلاء الذين سبقوه إلى القبر ؟ لا أحد يعرف ..

المحزن أن مرضى الغيبوبة يموتون أو يعودون لعالم الواقع

فلا يذكرون أى شىء ..

إن تنفسه منتظم فلن يكون هناك داع للتنفس الصناعى ..

أولجوا له أنبوباً أنفياً للتغذية وقاموا بأخذ العينات اللازمة منه ..

وصل الطبيب الروسى (فاسيلى سيميياكوف) وقد جلب معه

خطيبته (سيمونيتا) الإيطالية ، فهتفت عندما رأت المنظر :

- « بالله عليك قل لى ماذا حدث لهذه الوحدة ؟ منذ يومين

كان (ماكفادين) واليوم هو ؟ »

قال (أبلتون) وهو يتحسس نبض الفتى :

- « كنا نعتقد أن (ماكفادين) يعانى الملاريا .. لم يطل هذا

الاعتقاد ، فقد اتضح أنه مصاب بخراج كبدى .. لكن الأمر وارد

هنا جداً .. على فكرة هناك شهود عيان يقولون إن الفتى كان

مشتتًا فى اليومين السابقين وكان تركيزه ضعيفًا .. ربما كانت هذه بدايات المرض .. »

قال الروسى وهو يتحسس شعر الفتى :

- « لماذا ؟ إنه يتعاطى أدوية الوقاية من الملاريا .. »

- « لو اتضح أنها ملاريا فلسوف نجد تفسيرًا .. »

قال الروسى مكلّمًا الفتى الذى لا يسمع :

- « سوف تفيق يا صديقى .. صدقنى .. »

كان (سيميياكوف) هو الذى دق الباب عدة مرات فى الصباح فلم يرد صاحبه .. نزل إلى قسم الجراحة فوجدهم يغفون غيظًا لأن الفتى لم يأت بعد .. إنه موعد مهم جدًا ومن المستحيل أن يتقاعس عنه .. هو يعرف صديقه ويعرف أنه القلق مجسدًا لو طلب منه شيء .. لو أنك أمرته بالاسترخاء لتوتر ووضع جدولًا يسترخى به !

هكذا بحث عن صاحبه فى الكافتيريا .. فى ردهات الوحدة ..

فى الحديقة ..

لا أثر له ..

صعد من جديد إلى غرفته وواصل دق الباب ..

ثم لما استبد به القلق طلب مشرف الطابق وأغراه بأن يفتح الباب بالمفتاح الذى يحملة (فقط لأظمنن) .. هكذا عالج الرجل الباب وشهق وهو يفعل هذا ..

كان الفتى ساقطًا على الأرض .. يلبس المعطف مما يعنى أنه سقط ليلة أمس لدى عودته للغرفة أو صباح اليوم بعد ما ارتدى ثيابه .. على كل حال الفراش لا يوحى بأن هناك من نام فيه ..

كان عنقه ملتويًا وهذا سبب الشخير المخيف الذى يصدر منه ..

حاول أن يوقظه معتبرًا أنها حالة إغماء ، برغم أنه يعرف أن الإغماء لا يطول أبدًا أكثر من ثلاث دقائق .. وأن السقوط أرضًا كاف للإفاقة ..

بالطبع كانت محاولات حمقاء ، لهذا جرى إلى الهاتف وطلب مختص الأمراض العصبية كما طلب د . (أبلتون) لأنه يعرف أنه بارع ..

بعد دقيقة ظهر د . (يوكيجيما) اليابانى ، وهو بىادى الدهشة والقلق ، فهو لم يعتد أن يفحص طبيبًا فى غرفته من قبل ..

وكانت النتيجة كالتالى : هذه غيبوبة .. لا يمكن التكهن بسببها

من دون المزيد من الفحوص ..

إن الأصوات التى تحدثها الكرات فى الصندوق المغلق لا تدل على شيء ..

بعد ساعتين كانت النتيجة واضحة ..
إنها الملاريا المخية ... واحدة من أفظع مضاعفات الملاريا ..
كان علينا أن نخمن هذا .. عندما تتغير الشخصية بلا تفسير ويقل التركيز فى شخص يفتقر إلى المناعة فالملاريا المخية واردة ..
سوف نبدأ العلاج حالاً ثم نحاول الفهم بعد ذلك .. إن مستوى الجلوكوز فى دمه منخفض جداً وهى من العلامات المميزة لملاريا (فالسيبارم) .. سوف نبدأ (الكينين) الوريدي .. سوف نحافظ على التنفس ..
سوف نفعل كل شيء ..

فى هذا الوقت علينا أن نعرف لماذا أصيب بالملاريا ..
لا بد أنه كف عن تعاطى العلاج الوقائى منذ عدة أيام ...
فلماذا فعل د . (علاء عبد العظيم) ذلك !!؟

5- أنا ..

من بين أنواع الملاريا أنا الأخطر .. أنا الذى يعجز عن علاجها ..
لنى ثلاثة أشقاء .. لكنهم لا يسببون مرضاً أخطر من الرجفة والحمى .. إنهم سذج يفتقرون إلى الحيلة ، بينما أنا .. أنا (الفالسيبارم) أقوى الأنواع .. وبرغم هذا أنا أسهلها فى العلاج ..
لو سمعت عن شخص هنا أو هناك فتكت به الملاريا ، فلتعلم أننى المسئول ..
أصيب الأمعاء فأحدث ما يشبه داء الكوليرا .. أصيب الكلية فأتلفها .. أصيب الكبد فأحدث التهاباً كبدياً .. أصيب الرئة فأحدث التهاباً رئوياً ..
إننى أسبب نقصاً فى نسبة السكر بالدم مما يقود المريض إلى غيبوبة .. إننى أحطم خلايا الدم الحمر بكثرة مما يؤدى إلى أن يبول المريض بولاً أسود هو ما كان يسمى قديماً (حمى الماء الأسود) ..

لكن أخطر ما أسببه هو الملاريا المخية ..
يصيب هذا الداء من لم يكتسبوا بعد المناعة ضدى ..

بمعنى آخر .. أنت تولد هنا .. تتلقى اللدغات ألف مرة يومياً ، من ثم تكون درجة عالية من المناعة ضدى ... لو عشت حتى سن ستة أعوام وهو ما أراه الآن فأنت منيع ضد المرض تقريباً .. نفس ما يحدث فى مصر مع البلهارسيا .. إن الفلاحين يتحملون المرض أكثر بكثير من ذلك (الخواجة) الذى قرر أن يستحم فى الترعة فجأة .. بريطانيون كثيرون جربوا السباحة فى الترع فى مصر وهلكوا على الفور .. سعداء الحظ الذين عاشوا منهم قتلهم عقار (الطرطير) الذى كانوا يعالجون به البلهارسيا قديماً ! بالنسبة للفلاحين المصريين كان العقار (مرهقاً) يقتضى أن يدبر الفلاح حملاً يعيده لداره بعد أخذ الجرعة .. بالنسبة للغربيين كان (قاتلاً) !

ومن الغريب أن الأفارقة الذين يبتعدون عن البعوض ويديسون فى أوروبا مثلاً يفقدون مناعتهم على مدى خمسة أعوام ..

يأتى الأوروبى أو الغربى الأبيض هنا ، وهو لم يتعرض لللدغة فى حياته .. إنه يتعاطى الدواء الواقى من المرض ، لكنه لا يملك أية مناعة .. ثم يتوقف عن تعاطى الوقاية فيصاب بأخطر المضاعفات طراً .. الملاريا المخية ..

فى البداية تبدأ أعراض فقدان التركيز واضطراب الأفكار وتغيرات الشخصية ..

تبدأ نوبات تشنج شبيهة بالصرع .. ربما شلل نصفى أو رباعى .. ربما اضطراب فى التوازن يذكرك بالثملين .. ثم تأتى الغيبوبة الثقيلة المصحوبة بارتفاع فى الحرارة .. ما سببها ؟ ليس الأمر واضحاً لكم بعد ..

يقال إن السبب هو انسداد أوعية المخ الدقيقة ، ويقال إن استهلاكى عال جداً من الجلوكوز والأكسجين مما يحرم المخ من هذين العنصرين الثمينين .. قيل إن السبب هو نواتج التأكسد الناجمة عنى ، أى أن فضلاتى تسمم مخ المريض .. وقيل إن ما يدعى (TNF) هو السبب ..

أنا لا أعرف .. أنا أمارس حياتى وكفى .. كما تكتب أنت الشعر ولا تعرف كيف ..

على كل حال صار علاج هذه الحالة العصبية ممكناً لكن 10% ممن أصيبوا بها سوف يصابون بخلل عصبى دائم .. ربما تتدهور ذاكرتهم .. ربما يتدهور ذكاؤهم ..

لست شريراً .. صدقونى ..

فقط لا أعرف لنفسى طريقة أخرى للحياة ..

لا بد لى من تدميركم كى أعيش .. لا بد لكم من القضاء على
كى تعيشوا ..

معركة شرسة منذ فجر التاريخ .. أحيانا تبدو الغلبة لكم كما
رأيتم أيام (روس) ويبدو كأنكم قاب قوسين أو أدنى من عالم
بلا ملاريا .

ثم أكثر عن أنيابى من جديد وأعلن أننى لا أقهر .. يقولون
إنه كلما اخترع العلماء مصيدة أحدث جاء للوجود فأر أنكى ..
هذا ينطبق على بشدة ..

إننى أتعلم المقاومة .. أكتسب خبرات غير مسبوقه ..

لقد حسبت أن امرى انتهى عندما حدثت تلك القصة للكونت
(سينكونا) حاكم (بيرو) وزوجته الحسناء ..

لا تعرفون القصة ؟ إذن دعونى أقصها عليكم ..

كان الكونت (سينكونا Cinchona) حاكماً عسكرياً إسبانياً
على (بيرو) عام 1638 ، وقد مرضت زوجته بداء غريب ..

كانت تنتفض للحظات ثم يغمر العرق جسمها كله .. بعدها
تصاب بإعياء شديد وتنام يوماً كاملاً ..

هذا الكابوس يتكرر كل ثلاثة أيام .. برد .. حرارة شديدة ..
عرق .. راحة .. وكانت الشهية تعود بعد الراحة .. ربما أكثر
من اللازم ..

هكذا صارت حياة الزوجين جحيماً .. جحيماً يتكرر كل ثلاثة أيام ..

استدعى الكونت كل أطبائه .. طبغاً أطباء ذلك العصر - القرن
السابع عشر - كانوا مجموعة من الجهلة الأثرياء .. ثياب فاخرة ..
كلام كبير عن الصفراء والبلغم والماء الذى تختزنه الرئتان والشرابين
التي تحمل الهواء .. أدوية مجهولة فى قوارير .. ثم لا شىء ..

عرف الكونت على الفور أن هؤلاء لن يشفوا زوجته لذا جرب
الصلاة والرهبان ..

جاءت النجدة عن طريق رجال الدين لكن ليس كما تتوقع ..
لقد جاءه القس يخبره بأمر ساحر هندي بارع قادر على شفاء
زوجته ..

دهش الكونت لكنه كان مستعداً لتجربة أى شىء ؛ لذا سمح
للساحر بمقابلته ..

كان الهندي عملاقاً برونزى اللون يلبس كما يليق بساحر محترم :
ريش وقواقع وجماجم حيوانات .. وقد جثا أمام الكونت ، وقال له :

- « أجدادى كانوا يراقبون الحيوانات السقيمة .. كانت تأتي إلى الشجرة المقدسة فى الغابة فتلوك بعضاً من قشرتها فتشفى .. حدث زلزال أسقط بعض هذه الأشجار فى البحيرة ، فتلون ماؤها بلون لحاء الشجرة .. هكذا عرف قومي أن من يشرب من مياه هذه البحيرة يشف من الحمى .. »

قال الكونت فى غلظة :

- « إذن فلتجرب هذا العلاج مع زوجتى .. »

قال الساحر :

- « بشرط ! أطلب من سيدى أن يطلق سراح المعتقلين من قومي فى السجون الإسبانية ! »

كان الكونت مستعمراً إسبانياً من طراز (ببزارو) و(كورتز) وأمثالهما من السفاحين الذين يجزون أعناق الهنود كأنهم بصد وباء إنفلونزا الطيور ، ولم يكن يطيق أن يبتزه هذا الهنودى ، لكنه كذلك لم يكن يطيق أن يرى زوجته الحسناء ترتجف كل ثلاثة أيام .. أحياناً ترغماً الحياة على اختيار شىء بين أمرين كريهين ..

هكذا أمر بإطلاق سراح السجناء ..

غادر الهنودى القصر وثباً وركض إلى الغابة على قدميه الحافيتين ..

ثم عاد وهو يحمل وعاء فخارياً به بعض القشور .. نقع القشور فى الماء ، لكن بالطبع نحن نعرف أن الدواء لن يعمل بهذه الطريقة .. لابد من الكثير من الرقص والغناء حول الوعاء كما يفعل كل طبيب محترم ..

هكذا راح يؤدي عمله بإتقان حتى تورمت قدماه .. وفى النهاية نهض وقدم إلى الزوجة المريضة ذلك الوعاء الفخارى وطلب منها أن تشرب !

- « إنه شديد المرارة ! »

هكذا لاحظت الزوجة ما لاحظته كل طفل بعد ذلك .. الدواء المفيد مر كريبه المذاق دوماً ..

الآن جاءت ساعة الحقيقة ..

اليوم موعد ارتفاع الحرارة من جديد ..

الكونت متوتر .. هل تعاود الحمى زوجته ؟ لو حدث هذا فلسوف يبدأ بذبح الهنودى ثم يفكر فيما يفعل بعد هذا .. لم تعد الحمى .. سبعة أيام كاملة ..

إنه الشفاء إذن !

وبكى الكونت وبكت الزوجة وبكى أنا وإن اختلفت الأسباب !

من لحاء هذه الشجرة المقدسة خرج أول دواء للملاريا عابراً المحيط إلى أوروبا مع القس .. وفى إيطاليا احتفظ الآباء (الجزويت) بسر هذه القشور ، وارتبط اسمهم بعلاج الملاريا .. عندما تشعر بحمى ورجفة اقصد القس اليسوعى ليباركك ويسقيك بعضاً من هذا الدواء الغريب ..

ثم أطلقوا على هذه القشور اسم (سينكونا) لأسباب لا تخفى على أحد ..

على أن العالم عرف فيما بعد اسمها كما كان الهنود يستعملونه .. (الكينين Quinine) ..

(الكينين) بداية النهاية للكابوس ..

(الكينين) الذى أنقذ حياة ملايين البشر ..

(الكينين) الذى كاد يقضى على ..

لكنى تعلمت كيف أقاوم .. وكيف أستمر ..

5- هو ..

- « ثمة شىء غريب هنا »

كان جلد د . (بالينجا بايلا) الأسود يلتمع فى ضوء المصباح ، كأنه رجل نحت من الأبنوس الفاخر .. وكان يعبث فى شاربه الكث مع مسحة الصرامة التى اعتاد أن يضيفها على نفسه .. لا توجد صداقات شخصية هنا ..

كانت كومة الأوراق أمامه تشى بأنه مشغول ولا وقت عنده لهذا الهراء .. إنه من الطراز الذى يشعر بالذنب طيلة الوقت لأنه مشغول .. حتى لتشعر بالحاجة إلى الاعتذار فالفرار ..

جواره يجلس (أبلتون) وهو لا يكف عن النظر إلى (سيميالكوف) فى ثبات كأنه صقر ..

قال (بايلا) :

- « أنت أقرب واحد له .. أليس كذلك ؟ »

فى ارتباك همس (سيميالكوف) وهو يرجع للوراء خطوة :

- « ربما كان د . (ماكفادين) هو الذى .. إنه يراه يومياً

أما أنا فلا .. »

- « (ماكفادين) مريض .. إنه يتحسن لكن لا أستطيع أن أكلفه بشيء .. بالمناسبة ما حال المصرى ؟ »

قال (سيمياكوف) :

- « يقولون إنه يتحسن .. وعينه يعود ببطء .. ما زالت الحالة خطيرة لكنهم يقولون إنه سيشفى على الأرجح ما لم يصب بالتهاب رئوى .. »

قال د . (أبلتون) الذى ظل صامتًا طيلة الوقت :

- « أنت تعرف القصة .. لقد فحصنا الغرفة .. كل شيء يدل على أنه كان لديه (الدوكسيسكلين) وبرغم هذا أصيب بملاريا مخية ... ما السبب ؟ »

- « هذه الأشياء تحدث يا سيدى .. كم من أسرار لا إجابة عنها فى الطب ! »

- « لكننا كذلك نتعلم أنه ليس بوسعنا الرضا بإجابات جاهزة .. »

ثم لوَّح بقلمه فى الهواء ، وأردف :

- « الاحتمال الأول هو أن العقار فقد قدرته على الحماية .. وهو احتمال خطر كربه .. لو كان صحيحًا لوجدت هنا أقطاب علم

المناعة وطب المناطق الحارة والطفيليات والصحة العالمية .. أن تظهر الملاريا مقاومة لهذا العقار الذى استخدمناه بعد ما قاومت العقاقير القديمة مثل (الكلوروكين) أمر مخيف .. معنى هذا أنه لم يبق لنا إلا (المفلوكين) باهظ الثمن .. لهذا أفضل أن أوجل هذا الاحتمال بعض الوقت .. »

- « والاحتمال الثانى ؟ »

- « أن صاحبك لم يكن يتعاطى العلاج .. لقد توقف عنه منذ برهة .. »

- « ولماذا يفعل هذا ؟ »

- « نتوقع منك بعض التفسيرات .. »

فكر (سيمياكوف) بعض الوقت ، ثم قال فى حذر :

- « هل تتحدث يا سيدى عن محاولة انتحار ؟ »

ضحك الرجلان كثيرًا وتبادلا النظرات .. لا شيء يثير الغيظ مثل أن يضحك الناس مما تقول دون أن تفهم موضع الدعابة .. هذا يشعرك بأنك أحمق تمامًا ..

أخيرًا قرر (أبلتون) أن يفسر ما هناك :

- « لا أتحدث عن انتحار .. ليس إلى هذا الحد .. لا أحد ينتحر عن طريق الامتناع عن تعاطي الوقاية من الملاريا .. هناك طرق أسهل من هذا بكثير .. أنا أتحدث عن إهمال .. أتحدث عن فقدان الرغبة في الحياة .. هذا شخص لم يعد يبالي بأن يمرض أو لا يمرض .. ذات المنطق الذى يجعل المرء يدخن ثلاث علب من التبغ يوميا .. هذا هو ما أتحدث عنه .. »

هنا تدخل المدير قائلاً دون أن يرفع عينه :

- « فى قراءة معينة نحن نسمى هذا انتحاراً .. لكنه انتحار بطيء .. ويحركه المنطق ذاته .. »

نظر (سيمياكوف) لهما فى غياب ، فقال (أبلتون) :

- « سوف نتشمم هنا وهناك .. أريد أن تعرف الأسباب التى دفعت هذا الشاب لعدم تناول دواء الوقاية بضعة أيام .. أيام معدودة لكنها كافية لقطع دورة المقاومة .. هذا هو ما سبب ما حدث ، خاصة أنه لا يملك أى قدر من المناعة .. »

قال (سيمياكوف) :

- « أشك فى أننى قادر على اختراق عقله .. هو أميل إلى التحفظ وإبقاء نفسه لنفسه .. ربما أجابنا هو عن هذا السؤال عندما يفيق .. »

- « حتى ذلك الحين .. تذكر أنك تتأكد من حقيقة أخطر من مزاج صاحبك النفسى .. تتأكد من عدم ظهور مقاومة لعقار (الدوكسيسكلين) .. »

هكذا تلقى (سيمياكوف) المهمة .. المهمة المستحيلة التى كان الأجدر أن يتولاها (علاء) ذاته ، لكن (علاء) الآن فى العناية المركزة يتلقى (الكينين) و(الدكستروز) ، ويحاول الأطباء منع مخه من أن ينتفخ فيقضى عليه ..

جلس فى غرفة الفتى الخالية مع خطيبته (سيمونيتا) ... لقد سمح له المدير بالتفتيش .. هذا شعور غريب على كل حال ، فأنت لا تفتش غرفة إنسان وإنما أنت تفتش فى ضميره .. تفتش ذكرياته .. تفتش قلبه ..

قال لها :

- « أشعر بأننى نذل وفضولى وربما منحرف كذلك .. »

ابتسمت مقدره ، وقالت :

- « الآن فقط عرفت هذا ؟ »

راح يقلب بين أوراق (علاء) الموضوعه على المنضده ..
 هناك بعض الكتب الطبيه .. هناك مفكرة وهناك قلم من الحبر
 الجاف .. هناك ملاحظات .. هناك خطابات بعضها مفتوح
 وبعضها تم لصقه .. ثمة جهاز كاسيت صغير عليه أغان عربية
 لم يفهم منها شيئاً ..

لا يوجد جهاز كمبيوتر ، فهو يستخدم أحد الأجهزة فى قاعة
 المكتبة لمراسلاته .. إن أجهزة الكمبيوتر مفيدة دوماً والتنقيب
 فيها تكون نتائجه مثيرة ..

يجب أن يرغب الناس على الاحتفاظ بجهاز كمبيوتر يضعون
 عليه أسرارهم إذا قرروا أن يصابوا بغيبوبة ..

هناك زجاجتا عطر ، ومزبل للعرق .. مجموعات من الجوارب ..
 ألبوم صور تظهر (علاء) مع زوجته الكندية .. واضح من
 الخلفيات أنها التقطت فى وحدة (سافارى) التى جاء منها لأن
 هناك الكثير من الصور فى الأحراش ... بعض الصور فى بلد
 شرق أوسطى ما .. طبعا مصر على الأرجح ..

هناك شريط شبه فارغ من (الدوكسي سيكلين) موضوع هناك
 على المنضده .. هذا لا يدل على شىء .. قد يكون توقف منذ
 أسبوع .. قد يكون توقف منذ جاء هنا ..

تفحصت الشريط وراجعت تاريخ الصلاحية .. لا يوجد احتمال
 غير أنه نسى استعماله ..

أو تجاهل ذلك ..

قالت (سيمونيتا) وهى تلتقط مفكرة وتقلب صفحاتها :

- « هذه مذكرات .. أنا متأكدة من ذلك .. »

- « بالعربية طبعا . »

- « لا أحد يكتب مذكراته بلغة غير لغته الأم .. هناك من

يفعلون هذا على سبيل الشفرة ، لكن لماذا يفعل ذلك ؟ ليس هناك

شخص عربى فى هذه الوحدة .. »

قال لها وهو يبتسم :

- « أعتقد أن لدينا هنا ما يلزم .. هذه المذكرات سوف تفسر

لنا كل شىء .. »

ثم تصفح الخلفية .. باطن غلاف المفكرة .. كانت هناك علامات

متلاحقة تذكر بالأرقام الثنائية التى يعرفها خبراء الكمبيوتر :

.. 19 18 17 16 15 14 13 12

1 1 1 1 1 1 1 1

- « ما معنى هذا ؟ هذه شفرة .. لكن علام تدل ؟ »

كانت (سيمونيتا) بارعة الذكاء .. إن النساء يملكن هذا النوع السريع (الخاطف) من الذكاء .. إتهن (لمحات) دائما .. بينما يتفوق الرجال فى النوع البطيء المتعمق من الذكاء ، لهذا تكون فتاة التتابع فى السينما فتاة (كما هو واضح) بينما يكون الفيلسوف رجلاً غالباً .. لهذا فهتمت على الفور :

- « الأرقام هى أيام الشهر .. لاحظ أنها تتكرر من رقم (1) إلى (30) أو (31) ... التاريخ يبدأ بقدمه إلى جنوب أفريقيا .. لقد كان يضع علامة (1) تحت كل يوم يمر بانتظار العودة .. »
- « شىء يحدثنى بأنه لم يحب حياته هنا .. لا أحد يعد الأيام إلا من يقبع فى زنزانه .. »

قالت له خطيبته وهى تتصفح المفكرة التى ملأها كلمات عربية :

- « ومن يقرأ لنا هذا الكلام ؟ »

قال شارذ الذهن :

- « من السهل أن نجد من يفهم العربية .. هناك عرب فى هذا البلد .. دعك من أننا ولا بد واجدون طبيياً باكستانياً أو ماليزياً يجيدها .. »

ثم طوى المفكرة ، وغمغم :

- « أمل أن يستفيق .. إتنى أحب هذا الفتى .. »

كان (علاء) هناك ..

هناك أين ؟

حقاً لا أستطيع أن أوضح لك أكثر من هذا .. نحن هنا .. هو هناك .. أنا لم أذهب إلى ذلك المكان الذى يذهب له من هم فى غيبوبة ، وإن كنت أحسبه بعداً آخر .. ثمة بعد خاص للنائمين ، وبعد خاص للمحتضرين .. فى ظروف معينة يتلاشى الفاصل بين الأبعد وتمتزوج ..

لابد أنه بحث كثيراً عن موضعه .. عن الفتحة السرمدية التى تفتاده إلى الممر اللولبى الخاص بمن هم فى غيبوبة .. إنه يزداد حكمة .. إنه يزداد قريباً من الحقيقة .. أية حقيقة ؟ لا أعرف .. أنا لم أذهب هناك قط كما قلت لك .. لو مات لاستمرت معرفته .. لو عاش لنسى كل شىء ..

فقط يعرف أن عليه ألا يخلط بين الدهاليز .. لو عبر الفتحة الأخرى فلربما دخل ممر المحتضرين .. فى نهاية ذلك الممر ظلام .. ظلام لا نعود منه أبداً ..

هناك من تقف على الفتحة حاملة شمعة .. لا يتبين ملامحها
وسط كل هذا البهاء الكونى ..

يدنو أكثر فأكثر .. ثم يشهق ويتراجع للوراء :

- « (برنات) !! »

تقول بسرعة كى لا ييكى ذعرا :

- « لا تخف .. أنا بخير .. هذا طيفى جاء يقودك إلى السلام ..

لا تخف أبداً ... »

- « كونك هنا يعنى أن .. »

- « كونى هنا لا يعنى أن مكروها حلّ بى .. والآن اترك أسئلتك

جانباً واتبعنى .. »

كما (بياتريس) تقفاد (دانسى) فى ظلمات العالم الآخر فى

(الكوميديا الإلهية) .. لكن (بياتريس) كانت قد ماتت فى صباها ..

(برنات) تؤكد أنها بخير ، و (علاء) لم يسمعها تكذب من قبل ..

الأطيفاف لا تكذب ..

يهمس (علاء) :

- « لماذا أنا هنا ؟ »

- « الملاريا ! »

- « الملاريا فتكت بى ؟ »

- « بل كادت .. سوف تنجو .. ثق بى .. أنا أعرف أنك ستتنجو

لأننى أحبك حقاً .. »

- « أنا ... أحبك حقاً .. »

قالها فى شىء من الخجل .. الأطيفاف لا تكذب لكن الأسوأ

لا ينطلى عليها الكذب ..

تمسك بيده بيدها الهشة الباردة .. يحب أيدى الإناث الباردة لأنها

تدل على روح يقظة قلقة .. يد الأنثى الدافئة توحى باطمئنان غبى

وكثير من أكل (المحشى) .. لكن .. كيف تكون يد الطيف باردة ؟

تقتاده .. ينظر عبر المر ليرى رقصة الأضواء المجنونة ..

سُدْم .. نيازك .. شهب .. ظلال .. أشباح .. ذكريات .. كل شىء

بالداخل .. لعبة كمبيوتر عملاقة لا رجعة منها ..

- « أنا خائف ! »

- « لا تكن طفلاً .. فكر فى الأمر كحلم كبير .. »

- « حلم قد لا أفيق منه .. »

- « فقط لو أخطأت السبيل ... »

يخطو خطوته الأولى فى الممر فتتغرس ساقاه حتى الركبتين
فى غبار هشن لا قوام له ...

- « أنا أغوص ! »

لكنها لم ترد .. يرفع وجهه بحثاً عنها فيجدها واقفة قرب
الفتحة والدموع فى عينيها :

- « لن أستطيع أن أتبعك أكثر من هذا . أنا آسفة .. أنا جئت
من ممرات الحلم وليس من حقى أن أدخل ممرات الغيبوبة .. »

- « لكن هذا الغبار يبتلعنى .. »

- « لن يفعل .. سوف تقاومه وتخرج .. فكر فى ... فكر فى
الوطن .. فكر فى أمك .. لن تعود لها من جنوب أفريقيا جثة
ملفوفة بالأكفان .. لن يقف أخوك الباكي ينتظرك فى المطار ..
أنت لا تطيق أن تقدم لهما كل هذا الحزن .. قاوم .. قاوم ! »

- « إنه يغوص فعلاً .. »

يقولها طبيب الأمراض العصبية وهو يلاحظ العلامات المقلقة
لانتفاخ المخ .. يصرخ فى الممرضة :

- « هلمى .. أريد أن تضحى (المانيتول) حالاً .. »

على المرقاب تبطئ ضربات القلب أكثر ... يرفع جفنى الفتى
ليفحص عينيه بكشاف صغير .. الحدقتان تتسعان ..

- « كورتيزون ؟ »

- « نعم .. نعم .. أدعو الله ألا تكون هذه حماقة ، لكن لا وقت
للندم ! »

الممرضة تبدأ فى ضخ (المانيتول) .. (الكورتيزون) مضرٌ
فى حالات الملاريا المخية لكن الموت مضر أكثر ..

علاء يغوص أكثر و (برنادت) تناديه من حيث توقف جوار
الفتحة :

- « تماسك يا (علاء) .. لن يقضى عليك هذا .. لن تعود
للوطن جثة هامة بسبب بعوضة ! كنت تتمنى نهاية أكثر خطورة
وتأثيراً ! تماسك ! سوف تخرج من هذا الغبار .. سوف تخرج ! »

6- أنا ..

من ضمن هواياتى المعتادة أن أسبب الإجهاض للحوامل اللاتى أصيبن ..

إن الحامل هشة بطبعها وحتى لو كانت مناعتها لا بأس بها ، فباتنى أملاً دمها .. أسبب لها فقر الدم ..

وهكذا يصير من السهل جداً أن تفقد وليدها ..

لكن إذا جاء الوليد إلى العالم ، فمن الوارد جداً أن يكون قليل الوزن معرضاً للهلاك فى أية لحظة ..

يمكنك أن تفحص الحبل السرى .. على الأرجح ستجدنى هناك .. لكن الرضيع نفسه لا يصاب بالمalaria على الأرجح ما لم تكن الأم مفتقرة للمناعة ..

هذه هى العدوى الخلقية .. أن يأتى الصغير إلى العالم وهو يحملنى منذ اللحظة الأولى ..

وعلى الفور يجده البعوض وتبدأ دورة حياتى بطريقة أخرى ..

قلت لك إننى مرض مهم بالغ الأهمية ، لهذا تنفق على منظمة الصحة العالمية مبالغ طائلة .. حلم القضاء على هو ذات حلم

القضاء على البعوض .. هل استطاع الإنسان القضاء على البعوض ؟ لا ..

هنا فكر العلماء فى فكرة أعترف بأنها عبقرية ..

لقد بدأ عصر الجينات والهندسة الوراثية ..

يمكن إيجاد جنس من البعوض لا ينقل الملاريا ، وهذا البعوض سوف يتزاوج مع البعوض العادى .. فى النهاية تاتى العالم أجيال من البعوض الذى لا تنتقل له الملاريا .. وهكذا تقطع دورتى فى نقطة حساسة ..

إن هى إلا أعوام يشفى فيها المرضى أو يموتون ، وسرعان ما يجد العالم أن وباء الملاريا قد انقرض ..

6- هو ..

قال (محمود نظير) وهو يتصفح المفكرة فى شىء من التردد :

- « ألا يعد هذا اعتداء على ملكية خاصة ؟ »

حكّ الروسى الشاب رأسه ، وقال فى ارتباك :

- « تمنيت أن أنفى ذلك .. فى الواقع لست متأكدًا أنا نفسى من

صحة الموقف ، لكن على الأقل هناك تعليمات لى من رئيسى ..

يعتقد أن هذا مفيد »

- « ربما يفيق صاحب المذكرات ويرفع عليك قضية مطالبًا

بمليون دولار تعويضًا »

- « لن ألومه لو فعل .. لكنه لن يفعل .. »

كانا جالسين فى ذلك المقهى فى (دير بيان) وأمام كل منهما

كوب كبير مليء بالقهوة واللبن .. (محمود نظير) نادى باكستانى

يعمل فى ذات المقهى الذى يعرفه (سيمياكوف) .. حسب قواعد

التوزيع الطبيعى (تحت الجرس) التى يعرفها الإحصائيون ، فإن

جل الشباب الباكستانى سيكونون نحيلين ، سمر اللون ، لهم هالات

سود ثقيلة تحت العينين .. الشعر الأسود الناعم الذى يغطى عينًا واحدة ، وتلك الرء المتضخمة المفخمة فى نطقهم للإنجليزية ..

فى البداية سأله (سيمياكوف) عما إذا كان يجيد العربية ، فقال الفتى فى نوع من الكبرياء الجريحة :

- « كيف لا أعرفها وأنا أقرأ القرآن ؟ »

وهى نقطة لاحظها الروسى كثيرًا لدى المسلمين غير العرب .. إن اتهامه بأنه لا يعرف العربية يعتبر نوعًا من الإهانة ..

قال (سيمياكوف) وهو يجذب المقعد :

- « إنى اجلس بالله عليك .. أريد أن تترجم لى ما كتب هنا .. »

نظر الباكستانى حوله فى ارتباك ، فقال (سيمياكوف) :

- « لا تقل لى إن صاحب المقهى يمنعك من الراحة عشر

دقائق .. »

- « لا .. لن أقول هذا .. »

ثم أمسك بالمفكرة وتصفحها ، وقال :

- « سيكون هذا صعبًا .. إنه يكتب الملاحظات لنفسه بخط

لا يقرأ .. وعندما تقرأ الخط لا تفهم أبدًا ما كان يريد قوله .. »

قال (سيميياكوف) وهو ينادى ساقياً آخر :

« لدينا الوقت كله .. سادعوك إلى بعض القهوة باللبن .. »

فى الصفحات الأولى كان هناك كلام كثير عن ضيقه بهذا البلد ، وشعوره بأنه منفى مرتين .. منفى بعيداً عن موطنه ومنفى بعيداً عن موطنه الأول ..

يقول فى فقرة معبرة :

« هل تناولت الإفطار ؟ لا أذكر ولا يهمنى أن أذكر .. إن هى إلا بعض لقيمات سوف تستقر فى معدتى بعض الوقت ثم تتلاشى .. الجوع ؟ لا أعتقد أن لدى ترف الجوع .. الذين يجوعون هم الأشخاص الذين يشعرون بداخلهم وأنا فقدت هذه القدرة .. »

« هل نمت أمس ؟ لا أذكر .. إن الحياة لحظة طويلة مرهقة فلا أدري إن كانت انقطعت أم لا .. هذا الوجه المنهك منتفخ الجفنين الذى يطالعنى فى المرآة صباحاً لا يشجعنى على أن أتحمس ... »

« يوم آخر فى بلد غريب وسط أناس غرباء .. تصور أن أختى ليس هنا .. أمى ليست هنا .. (برنادت) ليست هنا .. لن

يلومنى (بارتلييه) أو يمازحنى (بسام) .. حتى (ليفى) الوجد لن أستمتع بأن أمقته .. كل شىء هنا لا قيمة له .. لا أحد يرثى لهزائمك أو يفرح بانتصاراتك .. لا أحد يهتم بك حقاً .. »

« أريد جناحين .. جناحين ينبتان لى فجأة لأكون مثل (إيكاروس) .. سوف أركب المصعد إلى أعلى البناية .. سوف يسألنى رجال الأمن عما أريده لكنى أتجنبهم وأجرى .. أجرى فى خط متعرج نحو خافة السور ثم أفرد جناحى وأحلق .. أحلق ... سأطير فوق الأحراش .. فوق الوديان .. أعرف أن على أن أتبع النجم القطبى نحو الشمال .. سوف أطيروا طير .. وسأعرف أننى وصلت عندما أشم رائحة (تقليية الملوخية) .. فقط وقتها سأفتح عينى وأدرك أننى أحلق فوق مصر .. أتبع النيل نحو الشمال .. نحو شبرا .. سوف أهبط على السطح وأنزل لأعانق أمى وألثم يديها .. سوف تقول لى إننى أبدو شاحباً .. ستقول إننى فقدت وزنى .. ستقول إننى يجب ألا أعود .. لكنى ألتهم وجبة من يدها ثم أحلق من جديد لآتى بزوجتى من (أنجاوانديرى) .. »

قرأ (محمود) هذه السطور ثم نظر إلى الروسى ، وقال وقد اتسعت عيناه رعباً :

« هذا البانس يعانى حالة حنين للوطن متقدمة .. إنه اكتئاب مزمن .. هل أنت واثق من أن كاتب هذه السطور لم ينتحر ؟ »

هزّ (سيميّاكوف) رأسه ، وابتسم قائلاً :
 - « لست واثقاً من ذلك .. هناك من ينتحرون وهناك من يكفون
 عن طلب الحياة .. أعتقد أن النتيجة واحدة في الحالتين .. »

ثم حك رأسه ، وقال :

- « أرجو أن تكمل .. »

كتب الفتى فى بضعة مواضع كلمة (أونوبا) مع صورة سانجة
 بالقلم بأسلوب (السكتش) المعروف لوجه فتاة أفريقية طويلة العنق
 ساحرة النظرات .. لم يكن أفضل رسام على وجه الأرض لكنه
 كان مثابراً ..

وكانت هناك صورة صغيرة على طريقة الملصق (ستىكر) تمثل
 حرباء خضراء تبرز لسانها وقد تحركت كل عين فى اتجاه ..
 تلك العادة المزعجة للحرباء التى تثير ذعر النساء .

كان هناك بيت شعر يقول :

- « عجبت حين تركتها كيف لم أمت

وكيف انتثت بعد الوداع يدي معي »

طبعاً كان البيت كما ترجمه الفتى الباكستانى يقول :
 - « من الغريب أننى لم أقض نحبى عندما تركتها .. ومن
 الغريب أن يدي عادت لى »

هنا تأمل (سيميّاكوف) الصورة فى اهتمام .. ورمش بعينه ..

هذا الاسم .. هناك بالفعل ممرضة عملت فى (سافارى)
 لفترة ثم اختفت .. اسمها (أونوبا) .. كان فيها قدر كبير من
 السحر .. كانت جديرة بأن تكون من الزولو بقامتها الفارعة
 ونظراتها الساحرة ، لكن من الغريب أن لغزاً ما كان يحيط بها ،
 وكان الوطنيون أنفسهم يتجنبونها ..

هذه الصورة وبيت الشعر .. ثم هذه العبارة التى كتبت مراراً
 لا حصر لها :

« عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخرج
 وقاتل .. هيه هيه يى يى يى ! »

لا معنى لهذا إلا أن الفتى كان يحب هذه الـ (أونوبا) .. ثمة
 علامات معينة لم يفتن لها (سيميّاكوف) من قبل لكنه يفهمها
 الآن ..

ممرضة طبيب واحد .. هذا ما قيل له وتجاهله .. لكنه الآن يراه على ضوء آخر ..

(علاء) كتب هذه المذكرات بالعربية وهو على يقين أنه لن يقدر أحد على قراءتها ...

حتى زوجته الكندية ..

(علاء) متزوج ويحب زوجته .. أو هكذا يقول ..

إذن كيف استطاع أن يسمح لقلبه بأن يسبح في هذا الاتجاه كريشة تسبح مع التيار ؟ وما سر صورة الحبراء هذه ؟ .. هل اكتشف أن الفتاة تتلون ؟ هل كانت تكذب عليه ؟

في الصفحة التالية كانت عبارة تقول :

- « بكيت أمام (محمود لطفى) .. لم أبك أمام أحد منذ دهر .. كم أن هذا جميل .. كم أن هذا قاس ! »

من هو (محمود لطفى) ؟ إن الألفاظ تتكاثر ..

سأل الفتى الباكستاني :

- « هل تفقد رغبتك في الحياة إذا فقدت المرأة التي تهواها ؟ »

قال الفتى حار الدماء الذى هو ككل الهنود كتلة أعصاب عارية لا يغطيها إلا الجلد :

- « طبعاً .. لماذا يفقد المرء رغبته فى الحياة إن لم يكن هذا هو السبب ؟ »

هنرى الريفيرى
لولو

7- أنا ..

كانت أيامى مع عقار (الكلوروكين) قاسية .. لقد كان المريض يتعاطى بضعة أقراص من هذا العلاج فيشفى ..
بالنسبة لإخوتى من الأنواع التى تعرف كيف تنام داخل الكبد كان هذا يعنى الهزيمة فى المعركة لا فى الحرب .. سوف يقضى على الطفيليات التى تسبح فى الدم ويشفى المريض إلى حين .. سرعان ما تفيق الأنواع النائمة فى الكبد لتبدأ الدورة من جديد .. ولهذا كان على المريض أن يتعاطى عقار (بريماكين) كى يقضى كذلك على الأنواع النائمة ..

بالنسبة لى أنا (الفالسيپارم) لم يكن هذا بوسعى .. فلا حياة لى خارج الكريات الحمر ، ولا أعرف كيف أنام فى الكبد بانتظار العودة ..
مضى هذا أن تعاطى عقار (كلوروكين) كان كافياً للقضاء على ..

كان على أن أستمر .. وهكذا بدأت أتعلم كيف أقاوم عقار (كلوروكين) هذا ، ومعها تعلمت على مدى خمسة وعشرين عاماً كيف أقاوم العديد من هذه العقاقير .. لا أعرف كيف فعلت ذلك .. لعلى ابتكرت طرقاً فرعية للنجاة من مفعوله ، أو هو الانتخاب

الطبيعى الذى تكلم عنه (داروين) .. بعض أفرادى خلقوا قادرين على مقاومة (الكلوروكين) .. هل رأيت فيلم (الرجال X) ؟ هل تعرف معنى الطفرة ؟ تخيل الفنان أن هناك طفرات تجعل المرء قادراً على التحكم فى الطقس أو إخراج الثلج أو النار من أنامله .. حسن .. ليس الأمر بهذا الجموح بالنسبة لى .. فقط هناك أفراد جاءوا للعالم قادرين على مقاومة هذا العقار اللعين .. هذه الأنواع استطاعت أن تبقى حية وأن تنقل صفاتها لأجيال تالية .. هكذا جنت أنا من أبوين يقاومان (الكلوروكين) .. عشت وازدهرت .. ومع الوقت لم يعد هناك غيرى تقريباً ..

فى جنوب شرق آسيا وأماكن عديدة من أفريقيا لم أعد متأثر بالكلوروكين .. إن مناعة الملاريا ضد العلاج تزداد سوءاً .. بدأ هذا عام 1961 فى أمريكا الجنوبية ، وحالياً هو فى العالم كله .. (علاء) لم يشعر بهذا فى الكاميرون لأن غرب أفريقيا لم يعرف هذه المشكلة بعد ..

عقار (البروجوانيل) لم تعد له قيمة ..

(الفانسيديار) لم تعد له قيمة ..

(الكينين) لم تظهر له مقاومة إلا فى تايلاند .. هذا لحسن

حظ الجميع ..

ولهذا يسهر العلماء محاولين ابتكار أدوية جديدة ..
(علاء) كان يعرف أنه ليس بوسعه ابتلاع أقراص
(الكلوروكين) للوقاية هنا فى جنوب أفريقيا ؛ لذا بدأ فى تعاطى
(الدوكسيسكلين) .. لابد أن (شيلبى) أستاذة الأمريكى هو من
علمه ذلك ..

لكنه برغم هذا أصيب بالملاريا .. أصيب بأفطع مظاهرها ..
الملاريا المخية ..

أنا الآن أعبت فى دورة دماغه .. لو حالفه الحظ لبقى حياً ..
ولو حالفنى الحظ لبقى حياً .. لا يوجد خطأ مطبعى هنا .. لأن
موت المريض أمر خطير بالنسبة للطفيليات كذلك .. هذا يعنى
نهاية حياتها هى ذاتها .. الطفيل الذكى هو الذى يظفر بما يريد
من المريض ويبقيه حياً ... هكذا تفعل الطفيليات الأكثر تطوراً ..

ترى أية ذكريات تعبت فى خلايا هذا العقل غير الواعى ؟

7- هو ..

يواصل (سيمياكوف) سماع ذكريات الفتى كما يحكيها له
(نظير) ..

يقلب (نظير) الصفحات .. هناك أشعار .. كلمات من أغان ..
ثم يتوقف لحظة ويمعن النظر فيما يقرأ ..

- « لا شىء مما يدعوك للتفكير .. هناك آلام معدة مزمنة لديه ..
يبدو أنه يعانى الإمساك كذلك .. »

يقول (سيمياكوف) :

- « ليس هذا شاعرياً بالمرّة .. ستكون هذه أول مرة على
قدر علمى ينتحر فيها أحدهم لأنه مصاب بالإمساك .. »

وراح ينظر إلى الجالسين فى المقهى .. هذا الخليط العجيب
من الأفارقة والبيض والهنود ... ديكور المقهى الذى يوحى لك
بأنك فى الأحرار .. كل شىء هنا تم تصميمه لاسترضاء السياح
بهذه الصور التى تثير خيالهم ..

توقف (نظير) عند صفحة معينة وراح يتأملها فى اهتمام :

- « هنا مرثية لفتاة تدعى (جوجو) .. صحفية شابة مصابة بالإيدز .. »

نظر (سيميياكوف) إلى المفكرة .. هو يعرف هذه الفتاة ويعرف قصتها المؤسفة .. لقد ماتت بين يدي (علاء) بعد ما قتلها أهل قريتها .. لقد كانت صديقه .. كانت فتاة باسلة ولاشك فى أنها أحدثت جرحاً بليغاً فى نفس كل من عرفها ..

قال وهو يتذكر :

- « أعتقد أنه شيء يبعث على الاكتئاب .. لكنه ليس سبباً يحرّضك كى تعرض نفسك للخطر .. »

واصل (نظير) تفحص المفكرة ثم توقف عند صفحة بعينها وقال :

- « (دانييل تويلاك) .. تحت الاسم عدة خطوط .. من هو ؟ »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ »

- « هناك تعليق يقول : (دانييل تويلاك) مصاب بالمرض منذ عامين ، وهو شاعر أفريقى واسع الثقافة .. اللحية المنتفشة الكثّة والنظرة الحاملة التى تخترقك ... لكنى لم أسأله عن ظروف إصابته بالمرض .. على كل حال قد كوَّنت قاعدة تقضى

بأن 20% من مرضى الإيدز هنا لا ذنب لهم فيما أصابهم .. الباقون يمكنك أن تخمن قصتهم بمجرد النظر .. كان (دانييل) من الطراز الأخير .. لقد أصيب بالداء لأنه استحقه .. منه عرفت كل شيء عن (سارة بارتمان) «

بعد صفحتين كتب (علاء) فقرة طويلة مفصلة :

- « مات (دانييل) .. لم أستطع أن أفعل له أى شيء .. لم أستطع أن أدور الفراش كما تقضى الأسطورة الشهيرة .. لقد جاء الموت ليقف عند رأس السرير .. كان قد بدأ يعانى صعوبة بالغة فى التنفس منذ يومين .. وقد فحصته بالأشعة فلم أر ما يريب .. كان يسعل بلا انقطاع فوصفت له بعض أدوية السعال ، واضطرت إلى أن أجعله ينشق الأكسجين النقى .. لكن الحالة ازدادت سوءاً واكتسب لونا أزرق شديداً ... »

« طلبت رأى (ماكفادين) فهرع يفحص الفتى ، ثم طلب منى أن أعطيه عقار (بنتاميدين) .. إنه إذن (PCP) ذلك الطفيل اللعين الذى يقدر على قتل مرضى الإيدز .. الطفيل الذى جعل العالم يعرف مرض الإيدز فى البداية الأولى فى الثمانينات .. بالفعل بدأنا الحقن بينما نظر لى (ماكفادين) نظرة طويلة لامة ، وقال :

- « كان بوسعك أن تبدأ منذ ثلاثة أيام .. »

قلت له :

- « لقد أجريت فحصاً بالأشعة فلم أر ما يريب .. »

- « لا تستطيع أن تزعم هذا ما لم تجر له غسلاً شعبياً حويصلياً .. تسحب السائل وتحلله بحثاً عن ذلك الطفيل اللعين .. »

هكذا قضيت الليل أحاول إنقاذ (دانييل) بلا جدوى .. لقد افترس المرض رئتيه بسرعة جهنمية .. هذا الطفيل الذي لا يستطيع عمل أي شيء لرئة شخص مكتمل المناعة ، هو الطفيل الذي يقود مريض الإيدز إلى القبر ..

لقد دخل (دانييل) في غيبوبة طويلة استغرقت عدة ساعات وفي النهاية توقف تنفسه تماماً .. لقد انتهت معاناته في عالمنا هذا ...

اتجهت إلى (ماكفادين) وقلت له وأنا أنظر إلى الأرض :

- « لو كنت تحملي مسؤولية موته فأنا متأهب .. »

قال وقد احمر وجهه أكثر من ذي قبل :

- « لا أستطيع .. أنت تتحمل جزءاً من المسؤولية .. الجزء الأكبر منها يقع على أنا لأنى تركت لك الجزء الأكبر مما يجب أن أقوم به أنا .. أنت غير مختص وكان على أن أحذرك من هذه

النقاط التي نعتبرها بديهية .. والآن انصرف وحاول أن تكون وفاة هذا الرجل قد أضافت لمعلوماتك شيئاً .. »

كان الرجل هالكا في كل الظروف .. ما كان بوسع بشري أن ينقذه .. ولو لم يقتله هذا الطفيل لقتلته باكتريا (لسيتيريا) أو طفيل (كربتوكوكاس) أو إسهال (كربتوسبورديام) .. أو ..

لكني برغم هذا كرهت كثيراً أن أكون صاحب علاقة ما بوفاته .. لو اخترت لآثرت أن أكون في أبعد نقطة عنه لحظة موته ..

أعتقد أن وجهه سيطاردني طويلاً جداً .. بالذات وهو ينشد تلك القصيدة عن (سارة) .. »

فرغ (نظير) من الترجمة وفرغ (سيمياكوف) من الإصغاء ..

فكر (سيمياكوف) بعض الوقت ثم سأل الباكستاني :

- « هل يصيبك الاكتئاب وتكف عن طلب الحياة لو أغفلت

نقطة ما أدت إلى موت مريض ؟ »

قال (نظير) وهو يرشف قرح القهوة الثاني :

- « فقط لو كنت أتمتع بضمير حي .. أعتقد أن الأطباء تعلموا كيف

يسكتون هذا الصوت في أعماقهم وإلا ما استطاعوا الحياة .. »

نظر له (سيميياكوف) وابتسم ... لم يكن يعرف (علاء) بما يكفى ، لكنه قدر أنه على الأرجح من ذلك الطراز شديد الحساسية الذى يمكن أن يفقد رغبته فى الحياة لخطأ صغير أو حب مفقود أو عبارة لوم ..

- « هل انتهت المفكرة ؟ »

- « لا .. هناك كلام مهم كثير .. »

8- أنا ..

ليس انتقالى مقصوراً على البعوض .. صحيح أن هذا هو الأسلوب الأكثر كفاءة لكن هناك طرقاً أخرى ..

مثلاً يمكن أن أنتقل عن طريق الوخزات ، وهنا أبدأ فى ممارسة دورة حياة عادية وسط الكريات الحمر لكنى لا أهاجم خلايا الكبد أبداً ..

أنت تعرف الآن أنهم كانوا يعالجون (الزهرى) فى الماضى بهذه الطريقة .. عندما ترتفع حرارة المريض بفعل الملاريا فإن بكتريا (الزهرى) تهلك فى العملية ..

هناك نقل الدم .. إن الملاريا تنتقل عن طريق نقل الدم كأي مرض آخر .. خاصة عندما يكون الدم طازجاً .. يجب أن يشك الطبيب فى أى مريض ترتفع حرارته إذا كان قد نقل له دم منذ ثلاثة أشهر .. مدمنو المخدرات يصابون بالملاريا ضمن قائمة الأمراض الطويلة التى يسببها استعمال محقن ملوث ..

هل تعرف ملاريا المطارات ؟

مصطلح عجيب لكنه حقيقى .. البعوض يركب الطائرات القادمة من أفريقيا .. لقد تقدم كثيراً ... لكنه ليس بحاجة إلى تأشيرات دخول ولا جوازات سفر .. فقط يركب الطائرة ، ثم يخرج إلى المنطقة المحيطة بالمطار ليلدغ من يجده .. لهذا من الوارد أن يصاب (سيمون) الفرنسى المقيم جوار مطار (شارل ديغول) بالمalaria ، برغم أنه يعيش فى بيئة صحية تماماً ..

عندكم فى مصر تمارسون شيئاً مماثلاً مع السفن القادمة عبر النيل .. هذه السفن يتم رشها بالمبيدات بعناية لأن البعوض يستمتع بركوب السفن .. البعوض الذى يحمل الحمى الصفراء قادماً من قلب أفريقيا ! لو أن الحمى الصفراء دخلت مصر فلسوف تجد وسيلة نقل ممتازة تتمثل فى تلك البعوضة الصغيرة التى تملأ بيوتكم ..

بالطبع حدثتكم عن الملاريا التى تنتقل من الأم لجنينها .. هذا موضوع طويل ..

الحق أن الملاريا مرض مراوغ غريب الأطوار .. مرض بالغ الأهمية .. لا يمكن الكلام عنه إلا فى عدة مجلدات .. أعتقد أنني قد رددت على كل من قالوا إنه من العجيب أن يحكى طفيل رواية كاملة ..

لكن الأمور ليست على ما يرام بالنسبة لى ..
هذه المادة (الكينين) تتعالى فى دم الفتى ..

أشعر بها وأشعر بسميتها ..
مستوى (الدكستروز) يرتفع فى دمه وهذا يروق لى .. لكن هذا فى الوقت ذاته يعنى أنه يتلقى علاجاً ما ..

أعتقد أن حياتى لن تطول كثيراً ..
لكنى نعمت بالكثير من المرح برغم كل شىء ..

8- هو..

انفجر (نظير) ضحكاً وهو مشهد غير معتاد .. هؤلاء الباكستانيون لا ينفجرون ضحكاً أبداً وإنما يكتفون برفع الحاجبين كناية عن القهقهة ..

قال داعم العينين للروسي :

- « هنا جزء مهم حقاً .. هل كان هذا الفتى ذنباً لا يكف عن

مطاردة أية أنثى ؟ »

قال الروسي في حيرة :

- « على قدر علمي لا .. ما الذي يدعوك لهذا ؟ »

قال (نظير) وهو يرفع الدفتر بين أنامله :

- « هذا الكلام عن الفتاة الرقيقة الشفافة (مادلين كوفيه) ..

إن هذه المفكرة تعج بأسماء النساء .. »

- « حقاً .. ماذا عنها ؟ »

في هذه اللحظة ظهر صاحب المقهى ونظر نظرة نارية إلى (نظير) فوثب هذا في الهواء .. هنا نظر (سيمياكوف) إلى القادم وقال في ثقة الأثرياء :

- « سيدي .. إنه يقوم لي بعملية ترجمة مهمة جداً من العربية إلى الإنجليزية .. أنا مستعد لأن أدفع لك أي ثمن تطلبه مقابل ما أسببه من تعطيل للعمل .. »

قال صاحب المقهى وهو رجل بدين من الأفريكاتز يبدو أنه يجيد البيزنس فعلاً :

- « ليست القضية هي المال .. إنها مسألة مبدأ .. لقد جاء هنا يعمل نادلاً .. هذا هو اتفاقنا .. لو أردت مترجماً أو مصمماً لنظم الكمبيوتر لطلبت هذا بوضوح .. »

لم يكن (نظير) على استعداد لسماع مزيد من المحادثة ، فانطلق يركض بين المناضد يأخذ الطلبات .. وبدا أنه نسي كل شيء عن الموضوع .. لن يسبب هذا الروسي الأحمق فضلي ..

هكذا أسقط في يد (سيمياكوف) خاصة أن الفتى دس المفكرة في جيبه ..

اضطر الروسى وهو يغلى غيظاً إلى أن ينتظر حتى نهاية ساعات الدوام ..
وأخيراً أمسك بيد الفتى الباكستانى واقتاده إلى مقهى آخر وطلب منه فى شىء من العصبية أن يكمل ما بدأه ..

قال (نظير) وهو يترجم ما قرأه :

- « هناك اسم (مانلين كوفيه) .. ثم كلام يقول : عبثاً حاولت أن أجعلها تنسى الإهانة التى تلقتها لكنها لم تنس ... قلت لها إننى فعلت ما بوسعى .. وأشرت إلى الكدمات التى تملأ وجهى .. قالت لى إنها تفهم ، ثم ارتمت بين ذراعى باكية .. لم أستطع أن أبعداها أو أفعل شيئاً .. فقط رحمت أبكى بدورى وأحاول منع المخاط من أن يسيل من أنفى على شعرها ..

« بدت لى طفلة عاجزة هشة .. تمنيت أن أقدم لها شيئاً . أى شىء .. لكن ما هى الأشياء التى يمكن أن تقدمها لطفلة هشة عاجزة ؟ »

وصمت (نظير) ونظر فى عيني (سيميياكوف) ، وقال :

- « إن لم يكن هذا حباً يا صاحبنى ، فما هو ؟ »

قال (سيميياكوف) مفكراً :

- « لكنه كذلك ليس حباً .. ثمة شىء غامض هنا ... الفتاة تبكى بعد تعرضها لإهانة .. كانت طبيبة فرنسية مخطوبة لفتى من (الهوتنتوت) يدعى (فيليب) .. ثم فجأة اختفى الفتى ولم نعد نعرف عنه شيئاً ، ويبدو أنها أصيبت باكتئاب وفقدت حيويتها .. لا أفهم .. »

قال (نظير) :

- « والبكاء بين ذراعى طبيبك هذا ؟ »

- « هذا لا يثبت شيئاً .. الرجل يتحول أمام دموع المرأة إلى طفل أبله عاجز عن عمل أى شىء منطقى .. لو لم تكن تبكى لتصرف بعقلانية أكثر .. »

فى النهاية أفرغ (سيميياكوف) باقى كوب العصير فى جوفه

وسأل :

- « هل من تفاصيل أخرى ؟ »

- « أشياء بسيطة جداً .. »

قال الروسى ، وهو يخرج ورقة عملة ويضعها على المنضدة :

- « أعتقد أنني كونت نظرية لا بأس بها .. (علاء) كان يحب ممرضة تدعى (أونوبا) .. وفي الوقت ذاته كان يمتحن الأقدار مع (مادلين كوفيه) .. عرفت (مادلين) هذا فصممت على الانتقام وعلى أن تخبر زوجته بالأمر .. هكذا ازداد اكتئاباً وقرر أن ينهى حياته .. لم يستطع أن يفعل هذا بشكل مباشر من ثم كف عن تعاطي الدواء الواقى من الملاريا .. ترك نفسه للعبة الأقدار ، لكن الغريب أن طريقته نجحت وأصيب بالملاريا المخية .. »

- « نظرية غريبة جداً .. »

- « لكنها التفسير الوحيد .. »

ثم حك رأسه ونظر إلى المفكرة ، وقال :

- « هل من شيء آخر ؟ »

- « نعم .. فى الصفحة الأخيرة يقول : (ماكفادين) سوف يشفى .. أعتقد أنه خراج أميبى أو بكتيرى .. رباه ! كم أن مهنتنا خطيرة فى هذه البلاد ! الهواء نفسه كارثة . فقط أنا مطمئن لأننى لم آت من عالمه المعقم .. أنا قادم من بلد من العالم الثالث حيث العدوى فى كل مكان ، لهذا لدى مناعة تفوق مناعته .. من المضحك أن النظافة الزائدة عن الحد قد دمرت

صحة الغربيين .. القولون الخالى من البكتريا يصاب بالسرطان بسهولة تامة .. ولهذا يتناول الغربيون أقراص بكتريا لإضفاء بعض القذارة على جهازهم الهضمى ، بينما قولون من اعتاد أن يفطر فولاً وطعمية من عند (زيزو) لا يصاب بالسرطان بسهولة .. إن الأمر يشبه أن تبقى ابنك فى قوقعة بعيداً عن المجتمع فيصدم عندما يسمع أول عبارة سباب ..

« برغم اعتمادى على المناعة الطبيعية يجب ألا أنسى الوقاية .. سأتناول قرص الوقاية من الملاريا الآن وأضع العلامة المعتادة .. »

هنا قلب (سيميكاوف) المفكرة من جديد ليرى العلامات التى تقول :

12 13 14 15 16 17 18 19 ..

1 1 1 1 1 1 1 1

هذا غريب !

هذه العلامات لا تدل على مرور الأيام .. بل هى تدل على كل يوم يتناول فيه العقار الواقى من الملاريا .. كلما تناول العقار وضع علامة 1 ..

كان 19 هو اليوم الأخير من التعاطى .. إنه اليوم الذى أصيب بالغيوبة فى ليلته ..

هذا يعنى أنه تناول العقار بانتظام وحتى اليوم الأخير !!

قال (سيميياكوف) للمدير :

- « لا أعرف ما أقول يا سيدى .. لكن د . (عبد العظيم) كان

يتعاطى العقار بانتظام تام .. »

رفع المدير حاجبيه الكثين فى دهشة .. ثم وضع أوراقه جانباً

وقال :

- « لا تقل إنه لا يعانى مشاكل .. »

- « يعانى مشاكل .. الكثير منها ، لكن هذا لم يكن كافياً لجعله

يتخلى عن فكرة الحياة .. إنه مولع بالحياة .. كل واحد يعرف

هذا .. »

- « أنا لا أتحدث عن انتحار .. »

- « وأنا كذلك .. الفتى كان يضع علامة على كل يوم يتعاطى

فيه عقار (دوكسيسيكلين) .. هذا موجود فى مذكراته .. لقد

كان يخشى المرض كإى واحد آخر .. »

فكر المدير بعض الوقت وراح يتنفس بصوت ثقيل .. ثم قال :

- « سوف تكون هذه ورقة علمية بالغة الإثارة .. عقار

(الدوكسيسيكلين) لم يعد يعمل فى جنوب أفريقيا .. الملاريا وجدت

طريق هروب آخر .. ومعنى هذا أنكم الأجلب فى خطر داهم .. »

- « لا يمكن أن نقيس على حالة واحدة .. »

فكر المدير بعض الوقت ثم التفت إلى (أبلتون) متسائلاً :

- « كيف هو الآن ؟ »

- « كادوا يفقدونه أمس .. تورم فى المخ كاد يؤدى لفتق فى

جذع المخ .. لكنهم استطاعوا السيطرة عليه .. أعتقد أن وعيه

يتحسن .. القاعدة فى الملاريا المخية هى أن يفيق المريض

بالعلاج .. ربما يترك المرض أثراً عصبياً ما لكن المريض لا يموت

إذا تلقى العلاج .. »

قال المدير ضاحكاً من وراء شاربه الأبيض الكث :

- « لا شىء يحدث بسهولة مع الأطباء ! »

هذه قاعدة معروفة فى كل الأوساط الطبية .. لا بد من أن

يكون مرض الطبيب غريباً محيراً .. عندما يصاب المريض

العادى بالتهاب اللوزتين فإن كبسولتين من المضاد الحيوى

تتهيان القصة ، بينما يصاب الطبيب بشبه اختناق ويحتاج إلى الحقن بمضاد حيوى باهظ الثمن .. عندما تتألم معدة المريض العادى فهو يعانى سوء هضم .. بينما الطبيب يعانى قرحة معدية مضاعفة ..

قال (أبلتون) للروسى :

- « اسمع .. أريد أن تعيد تفتيش غرفته اليوم .. »

قال الروسى محتجاً :

- « لقد فتشتها كأنتى رجل شرطة يبحث عن بصمات .. »

- « ما زلت أرغب فى أن .. ولكن .. سأتى معك .. »

قالها وهو ينهض وينظر إلى المدير فى شبه استئذان فوافقه هذا على الفور ..

من جديد يعيد الروسى تأمل الغرفة .. يتجه ليزيح ستاراً فيدخل الضوء .. ذات المعالم السابقة التى حفظها .. يفتح (أبلتون) الخزانة ويتفحص كل شىء .. يفتح الكومود .. يقلب الأوراق ..

هذه الغرفة لها طابع خاص بها وشخصية .. كأنها حية بشكل ما .. يصعب تخيل أن من كان ينام فى هذا الفراش يرقد الآن فى العناية المركزة ..

اتجه (أبلتون) إلى الثلجة الصغيرة التى يبلغ ارتفاعها ارتفاع طفل فى الخامسة ، وسأل الروسى وهو يفتح بابها :

- « هل فتشت هنا ؟ »

- « بالطبع لا .. الثلجات لا تحوى إجابات عن أسباب الملاريا

المخية .. »

قال (أبلتون) وهو يركع ويتفحص الأرفف :

- « أنت أسوأ رجل شرطة ممكن .. كل الناس تخفى أسرارها

فى الثلجة .. يبدو أن من اخترعها أولاً صممها على شكل

خزانة محكمة ثم خطر له أن يضيف لها التبريد ! »

ثم أخرج زجاجة لبن شرب نصفها ..

دقق النظر .. ثم مد يده إلى رف آخر فأخرج زجاجتين من

أحد أدوية الحموضة ..

- « صاحبك كان يعانى آلاماً فى المعدة أو قرحة .. »

- « هذا واضح .. لا علاقة لهذا بالمalaria .. ليس ألم المعدة من أعراضها باستثناء أنواع فريدة مثل تلك التي تشبه الكوليرا .. و ... »

قال (أبلتون) وهو يرفع زجاجة الدواء فى الضوء :

- « واحدة فارغة وواحدة نصف مليئة .. لبن وأدوية حموضة .. »

ثم ابتسم وهو يقف وقد بدت عليه ملامح (هولمز) فى الفصل الأخير من أية قصة له :

- « الطريقة المثلى لمنع امتصاص مشتقات ال- (تتراسيكلين) !

لقد كان صاحبك يتعاطى (الدوكسيسكلين) بانتظام ، لكنه كان يتبع ذلك بجرعة لبن محترمة .. ثم الكثير جداً من دواء الحموضة ..

هذا كان يؤدي لعدم امتصاص الدواء على الإطلاق وكأنه لم يبتلعه أصلاً ! »

شهق (سيميالكوف) غير مصدق .. وقال :

- « لكنها حقيقة معروفة لكل طالب طب .. مستحيل أنه كان

يجعلها .. »

قال (أبلتون) :

- « هكذا يتصرف الأطباء بإهمال غريب عندما يمرضون .. يخرقون كل القواعد التي يحرصون على تحذير المرضى منها .. كأنهم أكبر من هذه التعليمات البسيطة .. يمكن الآن معرفة ما حدث .. لقد جاء إلى جنوب أفريقيا من الكامبيرون ، من ثم بدأ بتعاطى عقار (دوكسيسكلين) بانتظام .. فى ذات الوقت أصيب بقرحة معدية فبدأ يتعاطى اللبن وأدوية الحمض دون أن يترك فترة بين اللبن ودواء المalaria .. هكذا ظل هنا عدة أشهر وهو يحسب أنه محمى من المalaria ، بينما هو فى الحقيقة معرض لها بشراسة .. أعتقد أنه قام برحلة ما للأدغال .. »

قال (سيميالكوف) :

- « زار محمية (كروجر) .. كما زار إحدى قرى (الخوى خوى) . »

- « هكذا .. لقد تلقى لدغات البعوض بكثافة فى هاتين المرتين ..

ولم يكن منيعاً على الإطلاق .. هذه هى القصة المعتادة مع المalaria المخيبة .. »

ثم أغلق الخزانة بحركة درامية وهو يهتف :

- « القضية مغلقة ! »

9- أنا ..

أعتقد أن أمرى قد انتهى ..

إن العقار قد تغلغل في كل أنسجتي . إخوتى كذلك يلفظون
أنفاسهم الأخيرة ..

لقد نجا هذا الفتى .. وهلكنا نحن ..

هذا هو ناموس الحياة على كل حال .. فقط نحن نمارس نوعاً
خاصاً من الخلود عن طريق أجيال أخرى هنا وهناك تهاجم
مرضى آخرين ..

سوف يبتكر العلماء عقاراً آخر ، وسوف نتعلم كيف نقاومه ..

سيظل داء الملاريا قوياً كاسخاً ولن يهزم أبداً ..

فقط يوم يعرف العلماء كيف يصنعون لقاحاً واقياً ضد المرض ..
لقاحاً يحقن به الأطفال فى المناطق الموبوءة ..

فى هذا اليوم فقط سوف تعرف البشرية أنها انتصرت ... !

يومها ستكون قد قضت على الملاريا كما قضت على الجدري

وشلل الأطفال (تقريباً) .. * * *

لقد كانت جلستى معكم ممتعة .. ربما نلتقى مرة أخرى ..
ليس أنا بل سيكون مضيفكم واحداً آخر من سلالتى ..

حتى ذلك الحين تذكروا أن تكافحوا البعوض وأن تأخذوا
الأدوية الواقية لو تواجدم فى بلد موبوء ..

تذكروا أننى ..

يبدو أننى لن أجد الوقت الكافى لاستكمال كلامى ..

تذكروا أننى ..

أننى ..

* * *

9- هو..

يبلغ نهاية النفق وقدماه تخرجان من الغبار الناعم ..

(برنادت) هناك عند الطرف الآخر تضحك له ..

لقد أنهيت الرحلة ..

- « هل مت ؟ »

- « لا .. هل ترى ما ينتظرك خلف فتحة النفق ؟ هذا هو نور

الصباح .. أنت في عالم الأحياء من جديد .. »

ثم تضحك وتكوم أنفها على شكل (التشنيجة) المحببة

الشهيرة ، وتقول :

- « لم أساعدك كثيرًا .. أنا آسفة .. لا يجوز لى اختراق نفق

الغيوبية .. »

- « كنت معى وهذا كاف ... أحيانًا يساعدنا الآخرون بأن

يكونوا فى حياتنا فحسب .. »

تشير للضوء خارج النفق ، وتقول :

- « سوف يؤلم عينيك .. لكنك ستعتاد بعد قليل .. هيا .. ألقاك

فى الخارج .. لا تضعف .. تشجع .. »

يخطو الخطوة الأولى ..

بالفعل الضوء مؤلم بحق ..

مال (سيميياكوف) على الفراش ، وقال وهو يمسك بيده :

- « أنا آسف .. لقد اخترقت حياتك الخاصة بشكل غير

مسبق .. كانت تلك أوامر عليا .. »

ثم وضع طبق الحساء الفارغ جانبًا .. وجفف فم (علاء) ..

لقد أفاق (علاء) منذ يومين .. وهذه هى وجبته الأولى التى

سمحوا بها ..

بلل (علاء) شفتيه الجافتين ، وتحسس أنفه الذى أدماه أنبوب

(رايل) ، وقال :

- « من الحماسة أن تعتقدوا أننى أفكر فى شىء كهذا .. آخر

إنسان يمكن أن ينتحر أو يتخلى عن الحياة هو أنا .. عندما أفكر

فى أن الله خلق لنا هذه الأجهزة المعقدة .. إنزيمات وجزيئات

التصاق ومضادات تجلط .. شرايين تنقبض وتتبسط .. كلية تحتجز الصوديوم والزلال أو تطلقهما .. قلب لا يكف عن النبض .. هرمونات وبوابات خفية فى الخلايا لا تفتح إلا بالإسولين كى يدخل الجلوكوز .. جينات انتحار وجينات خلود .. وجينات تولد السرطان وجينات تمنعها من ذلك .. هرمون غدة درقية مسنول عن شعورنا بالنشاط ، وهرمونات تجعلك تكتشف أن زميلة دراستك جميلة فعلاً .. جهاز توازن فى الأذن الوسطى يخبرك ما إذا كنت تترنح أم تميل أم ترقد .. عندما أفكر فى هذا التعقيد المذهل رائع الجمال ، ثم أتخيل أن أحقق ما يأتى لينسف كل هذا قاطعاً شرايين يده أو بالغا أقراص منوم (لأن حبيبتي لم تعد تحبني) .. أشعر بالغثيان ... لم أر عملاً أحقر من هذا فى حياتي .. قلت لى إنك غير متدين ؟ »

- « أسرتى فى موسكو كانت مسيحية ثم تخلت عن الدين فى عهد ستالين .. »

- « لكنك تدرك على الأقل مدى حماقة هذا العمل .. أنا متمسك بهذا التكوين البيولوجى الرائع وسأحافظ عليه ما استطعت .. لن أترك هذه الأرض إلا مرغماً ولأن ساعتى حانت .. »

ثم تذكر شيئاً ، فأضاف : « ... »

- « لا مشكلة فى اختراق حياتى الخاصة .. لست من هؤلاء الذين يؤمنون أن أسرارهم خطيرة لمجرد أنها أسرارهم .. »

هنا قال الروسى باسمًا فى خبث :

- « هذا يريحنى .. لن تكون هناك كلمة واحدة عن (مادلين كوفييه) .. »

- « (مادلين) ؟ »

- « ولا (أونوابا) ! »

- « تعرف أونوابا ؟ »

- « ولا قصتك المؤسفة مع (دانيل توبزاك) ! »

نظر له (علاء) فى شك ، وقال :

- « أنت تقرأ العربية ؟ »

- « وجدت من يقرأها ! »

بدأ (علاء) يتحرك فى الفراش فى توتر واضح .. يبدو أن الهضم قد صار صعباً .. فى النهاية قال للروسى :

- « ليست لدى أسرار مهمة .. لكنى بالتأكيد أفضل أن أحتفظ بتفاهاتى هذه ! »

- « اطمئن ! اعتبر أنني نسيت كل شيء »

★ ★ ★

كان (نظير) النادل الباكستاني يثرثر مع (إقبال) زميله في الكافتيريا .. يحكى له قصصاً مسلية قرأها في مذكرات ذلك الطبيب المصري ..

أتمنى لو عرفت ما قاله بالضبط وما أضافه خياله إلى الأحداث من أشياء مثيرة لا وجود لها ، لكن هذه أشياء خارج نطاق معرفتنا هنا في (سافاري) .

د . علاء عبد العظيم

من قرب ديربان

(تمت بحمد الله)



د. محمد عز التوفيق

هواء فاسد

لم لا ؟ .. إنتى لست كائنًا بسيطًا أبله .. أنا أجلب
السقم لنحو ثلاثمائة مليون شخص ، وأقتل حوالى
مليونى شخص كل عام .. أى أنتى أفتك يانسان كل
نصف دقيقة !..

أنا ببساطة تاريخ الوجود .. عبقرية الخلق التى
تمثلت فى كائن دقيق لكنه قادر على أن يقهر الجيوش ..
قادر على أن يغير التاريخ .. قادر على أن يجعل العلماء
يسهرون فى سيف الهند الحار يحدقون فى عدسة المجهر
حتى يصيبهم العول ، كما سنعرف حالا عن (روس)
مانسون) و (جراسى) وسواهم ..

العدد القادم

رجل الرمال

المؤسسة

العربية الحديثة

للطبوع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية